شيخ الإسلام ابن تيمية

الرسالة التدمرية

في التوحيد والأسماء والصفات والقضاء والقدر

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية - عابدين ت: ٣٩١١٣٩٧

اهداءات ٢٠٠٢
أ/حسين كامل السيد بك فهمى
الاسكندرية

الرسالة التدمرية

في التوحيد والأسماء والصفات
والقضاء والقدر

تأليف
شيخ الإسلام ابن تيمية

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة
عبد الله حجاج
ت ٣٩١١٣٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ـــ صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما. أما بعد .

فقد سألنى من تعينت إجابتهم أن أكتب لهم مضمون ما سمعوه منى فى بعض المجالس ؛ من الكلام فى التوحيد والصفات وفى الشرع والقدر لمسيس الحاجة إلى تحقيق هذين الأصلين ، وكثرة الاضطراب فيهما . فإنهما مع حاجة كل أحد إليهما ، ومع أن أهل النظر ، والعلم ، والإرادة ، والعبادة لابد أن يخطر لهم فى ذلك من الخواطر ، والأقوال ما يحتاجون معه إلى بيان الهدى من الضلال لاسيما مع كثرة من خاض فى ذلك بالحق تارة ، والباطل تارات ، وما يعترى القلوب فى ذلك : من الشبه التى توقعها فى أنواع الضلالات .

فالكلام فى باب التوحيد والصفات : هو من باب الخبر الدائر بين النفى والإثبات .

والكلام فى الشرع والقدر : هو من باب الطلب والإرادة : الدائر بين الإرادة والمحبة ، وبين الكراهة والبغض : نفياً ، وإثباتا .

والإنسان يجد فى نفسه الفرق بين النفى والإثبات ؛ والتصديق والتكذيب ، وبين الحب والبغض ، والحض والمنع ؛ حتى إن الفرق بين هذا النوع وبين النوع الآخر معروف عند العامة والخاصة ، ومعروف عند أصناف المتكلمين فى العلم ، كما ذكر ذلك الفقهاء فى كتاب الإيمان ، وكما ذكره المقسمون للكلام ؛ من أهل النظر ، والنحو ، والبيان ، فذكروا أن الكلام نوعان : خبر ، وإنشاء ، والخبر دائر بين النفى والإثبات ، والإنشاء أمر ، أو نهى ، أو إباحة .

وإذا كان كذلك : فلابد للعبد أن يثبت لله ما يجب إثباته له من صفات الكمال ، وينفى عنه ما يجب نفيه عنه مما يضاد هذه الحال ، ولابد له فى أحكامه فى أن يثبت خلقه

وأمره ، فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته ، وعموم مشيئته ، ويثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه : من القول والعمل ، ويؤمن بشرعه وقدره إيماناً خالياً من الزلل .

وهذا يتضمن التوحيد فى عبادته وحده لا شريك له : وهو التوحيد فى القصد والإرادة والعمل ، والأول يتضمن التوحيد فى العلم والقول كما دل على ذلك سورة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ودل على الآخر سورة : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ وهما سورتا الاخلاص ، وبهما كان النبى ﷺ يقرأ بعد الفاتحة فى ركعتى الفجر ، وركعتى الطواف ، وغير ذلك .

فأما الأول وهو التوحيد فى الصفات فالأصل فى هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسله : نفياً وإثباتاً ؛ فيثبت لله ما أثبته لنفسه ، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه .

وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات ، من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل .

وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه ، مع إثبات ما أثبته من الصفات ، من غير إلحاد : لا فى أسمائه ولا فى آياته ، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون فى أسمائه وآياته ، كما قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ سَيُجزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلقَى فِى النَّارِ خَيْر أَم مَّنْ يَأْتِى آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ !﴾[2] الآية .

فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات ، مع نفى مماثلة المخلوقات : إثباتاً بلا تشبيه ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

فى قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ : رد للتشبيه والتمثيل وفى قوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ : ردا للإلحاد والتعطيل .

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٠)

(٢) سورة فصلت ـــ الآية (٤٠) .

والله سبحانه : بعث رسله (باثبات مفصل ، ونفى مجمل) فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل ، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل ، كما قال تعالى : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[٣] . قال أهل اللغة : هل تعلم له سمياً أى نظيراً يستحق مثل اسمه . ويقال : مسامياً يساميه ، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ مثيلا أو شبيها[٤] .

وقال تعالى : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوا أَحَدٌ﴾ وقال تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لله أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾[٦] وقال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٧] .

وقال تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى المُلْكِ﴾[٨] وقال تعالى : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا المَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ الله وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى البَنِينَ * مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ الله المُخْلَصِينَ﴾ إلى قوله : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٩] .

(٣) سورة مريم الآية (٦٥) .

(٤) ذكر الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى فى تفسيره الدُّر المنثور (٢٧٩/٤) تعقيباً على الآية (٦٥) من سورة مريم ماأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (هل تعلم له سميا) قال هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً .

وجاء فى تفسير ابن كثير (١٣١/٣) ماروا‌ه قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً .

(٥) سورة البقرة — الآية (٢٢) .

(٦) سورة البقرة — الآية (١٦٥) .

(٧) سورة الأنعام الآية (١٠٠) و (١٠١) .

(٨) سورة الفرقان الآيتان (١ ، ٢) .

(٩) سورة الصافات الآيات من الآية (١٤٩) إلى الآية (١٨٢) .

فسبَّح نفسه عما يصفه المفترون المشركون ، وسلَّم على المرسلين ، لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك ، وحمد نفسه : إذ هو سبحانه المستحق للحمد بما له من الأسماء والصفات ، وبديع المخلوقات .

وأما (الاثبات المفصل) : فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ، ما أنزله فى محكم آياته كقوله : ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾[10] الآية بكمالها . وقوله : ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ﴾ السورة ، وقوله : ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ ﴿وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ * ذُو العَرْشِ المَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[11] ﴿هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم * هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[12] .

وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَه فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[13] وقوله : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبّونَه أَذِلَّةٍ عَلَىٰ المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾[14] الآية ، وقوله : ﴿رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّه﴾[15] وقوله : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ ولَعَنَهُ﴾[16] وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكبرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُم إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾[17] وقوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُون إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالمَلَائِكَةُ﴾[18] وقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[19] .

وقوله : ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[20] وقوله : ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبنَاهُ نَجِيًّا﴾[21] وقوله : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكَائِىَ الَّذِينَ كُنْتُمْ

---

(١٠) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .
(١١) سورة البروج الآيات (١٤ : ١٦) .
(١٢) سورة الحديد الآيتان (٣ ، ٤) .
(١٣) سورة محمد ــ الآية (٢٨) .
(١٤) سورة المائدة ــ الآية (٥٤) .
(١٥) سورة البينة ــ الآية (٨) .
(١٦) سورة النساء ــ الآية (٩٣) .
(١٧) سورة غافر ــ الآية (١٠) .
(١٨) سورة البقرة ــ الآية (٢١٠) .
(١٩) سورة فصلت ــ الآية (١١) .
(٢٠) سورة النساء الآية (١٦٤) .
(٢١) سورة مريم الآية (٥٢) .

تَزْعُمُونَ﴾[٢٢] وقوله : ﴿إِنَّمَا أَمْرُه إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونْ﴾[٢٣] وقوله : ﴿هُوَ اللهُ الَّذِى لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ هُو الرَّحْمَنُ الرحِّيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[٢٤] .

إلى أمثال هذه الآيات ، والأحاديث الثابتة عن النبى ﷺ فى أسماء الرب تعالى وصفاته ، فإن فى ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل ، وإثبات وحدانيته بنفى التمثيل ، ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل ، فهذه طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وأما من زاغ وحاد عن سبيلهم ، من الكفار والمشركين ، والذين أوتوا الكتاب ، ومن دخل فى هؤلاء من الصابئة[٢٥] والمتفلسفة ، والجهمية[٢٦] ، والقرامطة[٢٧] والباطنية

---

(٢٢) سورة القصص الآية (٦٢) .

(٢٣) سورة يس الآية (٨٢) .

(٢٤) سورة الحشر الآيات (٢٢ : ٢٤) .

(٢٥) فى اللغة : صبأ الرجل إذا مال وزاغ فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصابئة .

ومدار مذهبهم على التعصب للروحانيين .

والصابئة تدعى أن مذهبها الاكتساب . [الملل والنحل (٢/٥) للشهرستانى]

(٢٦) **الجهمية** : أصحاب جهم بن صفوان تلميذ الجعد بن درهم الذى قتله خالد بن عبدالله القسرى سنة ١٢٤ هجرية على الزندقة والإلحاد والجعد أول من ابتدع القول بخلق القرآن وتعطيل الله عن صفاته والجهمية فرقة ضالة من جهالات المسلمين الجبرية الخالصة التى وافقت المعتزلة فى نفى الصفات الأزلية .

[الملل والنحل (٢٦/١) للشهرستانى]

(٢٧) **القرامطة** : نسبتهم إلى رجل من سواد الكوفة يقال له قرمط بكسر القاف وسكون الراء وكسر الميم وبعدها طاء مهملة — ولهم مذهب مذموم وكانوا قد ظهروا فى سنة ٢٨١ هجرية فى خلافة المعتضد بالله .

وطالت : أيامهم وعظمت شوكتهم وأخافوا السبيل واستولوا على بلاد كثيرة وأخبارهم مستقصاة فى التواريخ .

وانظر الفرق بين الفرق للبغدادى (١٧٣) . [مقالات الاسلاميين (١٠٠/١) للأشعرى]

ووفيات الأعيان (٤٥٩/١) ، (٤٥٩/٣) .

[والتاريخ الكبير] لابن الأثير فى مواضع كثيرة أولها حوادث سنة ثمان وسبعين ومائتين . [والتنبيه لأبى الحسين الملطى (٢٦)] .

والحضارة الإسلامية لآدم متز (٤٥/٢ — ٤٩) وانظر دائرة المعارف «هيوارا» مادة حمدان قرمط .

ونحوهم : فإنهم على ضد ذلك ، يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل ، ولا يثبتون إلا وجوداً مطلقاً لا حقيقة له عند التحصيل ، وإنما يرجع إلى وجود فى الأذهان ، يمتنع تحققه فى الأعيان .

فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل ؛ فإنهم يمثلونه بالممتنعات ، والمعدومات ، والجمادات ؛ ويعطلون الأسماء والصفات ، تعطيلا يستلزم نفى الذات .

فغُلاتهم يسلبون عنه النقيضين ، فيقولون : لا موجود ولا معدوم ، ولا حى ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات ، وإذا وصفوه بالنفى شبهوه بالمعدومات ، فسلبوا النقيضين ، وهذا ممتنع فى بداهة العقول ؛ وحرفوا ما أنزل الله من الكتاب ، وما جاء به الرسول ، فوقعوا فى شر مما فروا منه ، فإنهم شبهوه بالممتنعات ، إذ سلب النقيضين كجمع النقيضين ، كلاهما من الممتنعات .

وقد عُلم بالاضطرار : أن الوجود لابد له من موجد ، واجبٍ بذاته ؛ غنى عما سواه ؛ قديم أزلى ؛ لا يجوز عليه الحدوث ولا العدم ، فوصفوه بما يمتنع وجوده ، فضلاً عن الوجوب أو الوجود أو القدم .

وقاربهم **طائفة من الفلاسفة** وأتباعهم فوصفوه بالسلوب والإضافات ، دون صفات الإثبات ، وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق ، وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا فى الذهن ، لا فيما خرج عنه من الموجودات . وجعلوا هذه الصفة هى الموصوف ، فجعلوا العلم عين العالم ، مكابرة للقضايا البدهيات ، وجعلوا هذه الصفة الأخرى ، فلم يميزوا بين العلم والقدرة والمشيئة ، جحداً للعلوم الضروريات .

وقاربهم **طائفة ثالثة** من أهل الكلام ، من المعتزلة ومن اتبعهم ؛ فأثبتوا لله الأسماء دون ما تتضمنه من الصفات ـــ فمنهم من جعل العليم ، والقدير ؛ والسميع ؛ والبصير ؛ كالأعلام المحضة المترادفات ، ومنهم من قال عليم بلا علم و قدير بلا قدرة ، سميع بصير بلا سمع ولا بصر ، فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات .

والكلام على فساد مقالة هؤلاء وبيان تناقضها بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول : مذكور فى غير هذه الكلمات .

وهؤلاء جميعهم يفرون من شئ فيقعون فى نظيره بل وفى شر منه ، مع ما يلزمهم من

التحريف والتعطيل ، ولو أمعنوا النظر لسووا بين المتماثلات ، وفرقوا بين المختلفات ، كما تقتضيه المعقولات ؛ ولكانوا من الذين أوتوا العلم ، الذين يرون أنما أنزل إلى الرسول هو الحق من ربه ، ويهدى إلى صراط العزيز الحميد .

ولكنهم من أهل المجهولات ، المشبهة بالمعقولات ، يسفسطون فى العقليات ، ويقرمطون فى السمعيات .

وذلك أنه قد علم بضرورة العقل أنه لابد من موجود قديم ، غنى عما سواه ، إذ نحن نشاهد حدوث المحدثات : كالحيوان والمعدن والنبات ، والحادث ممكن ليس بواجب ولا ممتنع ، وقد علم بالاضطرار أن المحدَث لابد له من محدِث والممكن لابد له من موجد ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[28] فإذا لم يكونوا خلقوا من غير خالق ولا هم الخالقون لأنفسهم تعين أن لهم خالقاً خلقهم .

وإذا كان من المعلوم بالضرورة أن فى الوجود ما هو قديم واجب بنفسه ، وما هو محدث ممكن ، يقبل الوجود والعدم : فمعلوم أن هذا موجود ، وهذا موجود ، ولا يلزم من اتفاقهما فى مسمى الوجود أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا ، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه ، واتفاقهما فى اسم عام : لا يقتضى تماثلهما فى مسمى ذلك الاسم عند الإضافة والتخصيص والتقييد ولا فى غيره .

فلا يقول عاقل إذا قيل إن العرش شئ موجود ، وإن البعوض شئ موجود : إن هذا مثل هذا ؛ لاتفاقهما فى مسمَّى الشئ والوجود ، لأنه ليس فى الخارج شئ موجود غيرهما يشتركان فيه ، بل الذهن يأخذ معنى مشتركا كلياً ، هو مسمى الاسم المطلق ، وإذا قيل : هذا موجود وهذا موجود ، فوجود كل منهما يخصه لا يشركه فيه غيره ؛ مع أن الإسلام حقيقة فى كل منهما .

ولهذا سمى الله نفسه بأسماء ، وسمى صفاته بأسماء ؛ وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره ، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم ، مضافة إليهم ، توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص ؛ ولم يلزم من اتفاق الاسمين ، وتماثل مسماهما واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص :

---

(٢٨) سورة الطور الآية (٣٥) .

اتفاقهما ، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص ، فضلا عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص .

فقد سمى الله نفسه حياً ، فقال : ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ وسمى بعض عباده حياً ؛ فقال : ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ﴾[29] وليس هذا الحى مثل هذا الحى ، لأن قوله الحى اسم لله مختص به ، وقوله : ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ﴾ اسم للحى المخلوق مختص به ، وإنما يتفقان إذا أطلقا وجردا عن التخصيص ؛ ولكن ليس للمطلق مسمى موجود فى الخارج ، ولكن العقل يفهم من المطلق قدراً مشتركا بين المسميين، وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق ، والمخلوق عن الخالق .

ولابد من هذا فى جميع أسماء الله وصفاته ، يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق ، وما دل عليه بالإضافة والاختصاص : المانعة من مشاركة المخلوق للخالق فى شيىء من خصائصه ـــ سبحانه وتعالى .

وكذلك سمى الله نفسه عليما حليما ، وسمى بعض عباده عليما فقال : ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[30] يعنى إسحق ، وسمى آخر حليما فقال : ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ يعنى إسماعيل ، وليس العليم كالعليم ، ولا الحليم كالحليم .

وسمى نفسه سميعاً بصيراً ، فقال : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بالعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[31] . وسمى بعض عباده سميعاً بصيراً فقال : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[32] وليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير .

وسمى نفسه بالرؤوف الرحيم . فقال : ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[33] وسمى بعض عباده بالرؤوف الرحيم فقال : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[34] وليس الرؤوف كالرؤوف ولا الرحيم كالرحيم .

(٢٩) سورة يونس الآية (٣١) .
(٣٠) سورة الذاريات الآية (٣٠) .
(٣١) سورة النساء الآية (٥٨) .
(٣٢) سورة الإنسان الآية (٢) .
(٣٣) سورة البقرة الآية (١٤٣) .
(٣٤) سورة التوبة الآية (١٢٨) .

وسمى نفسه بالملك . فقال : ﴿المَلِكُ القُدُّوسُ﴾ ، وسمى بعض عباده بالملك فقال : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[٣٥] ﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِى بِهِ﴾[٣٦] وليس الملك كالملك .

وسمى نفسه بالمؤمن المهيمن ، وسمى بعض عباده بالمؤمن فقال : ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوونَ﴾[٣٧] وليس المؤمن كالمؤمن .

وسمى نفسه بالعزيز فقال : ﴿العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ﴾[٣٨] وسمى بعض عباده بالعزيز . فقال : ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ﴾[٣٩] وليس العزيز كالعزيز .

وسمى نفسه الجبار المتكبر ، وسمى بعض خلقه بالجبار المتكبر فقال : ﴿كَذَلِكَ يَطبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[٤٠] وليس الجبار كالجبار ، ولا المتكبر كالمتكبر ، ونظائر هذا متعددة .

وكذلك سمى صفاته بأسماء ، وسمى صفات عباده بنظير ذلك ، فقال : ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِمَا شَاءَ﴾[٤١] ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ وقال : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوةِ المتِينُ﴾[٤٢] وقال : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُم هُوَ أَشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً﴾[٤٣] . وسمى صفة المخلوق علماً وقوة ، فقال : ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾[٤٤] وقال : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[٤٥] وقال : ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِنَ العِلْمِ﴾[٤٦] وقال : ﴿اللهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِنْ ضَعْفٍ ثُـمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وشَيْبَةً﴾[٤٧] وقال : ﴿وَيَزِدْكُم قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[٤٨] وقال : ﴿والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾[٤٩] أى بقوة ، وقال : ﴿واذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ﴾[٥٠] أى ذا القوة وليس العلم كالعلم ، ولا القوة كالقوة .

---

(٣٥) سورة الكهف الآية (٧٩) .
(٣٦) سورة يوسف الآية (٥٤) .
(٣٧) سورة السجدة الآية (١٨) .
(٣٨) سورة الحشر الآية (٢٣) .
(٣٩) سورة يوسف الآية (٥١) .
(٤٠) سورة غافر الآية (٣٥) .
(٤١) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .
(٤٢) سورة الذاريات الآية (٥٨) .
(٤٣) سورة فصلت الآية (١٥) .
(٤٤) سورة الإسراء الآية (٨٥) .
(٤٥) سورة يوسف الآية (٧٦) .
(٤٦) سورة غافر الآية (٨٣) .
(٤٧) سورة الروم الآية (٥٤) .
(٤٨) سورة هود الآية (٥٢) .
(٤٩) سورة الذاريات الآية (٤٧) .
(٥٠) سورة ص الآية (١٧) .

ووصف نفسه بالمشيئة ووصف عبده بالمشيئة ، فقال : ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾(٥١) وقال : ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(٥٢) .

وكذلك وصف نفسه بالإرادة وعبده بالإرادة ، فقال : ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا واللهُ يرِيدُ الآخِرَةَ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٥٣) .

ووصف نفسه بالمحبة ووصف عبده بالمحبة فقال : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(٥٤) وقال : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾(٥٥) .

ووصف نفسه بالرضا ووصف عبده بالرضا ، فقال : ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(٥٦) ومعلوم أن مشيئة الله ليست مثل مشيئة العبد ، ولا إرادته مثل إرادته ، ولا محبته مثل محبته ، ولا رضاه مثل رضاه .

وكذلك وصف نفسه بأنه يمقت الكفار ، ووصفهم بالمقت ، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَونَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُم أَنْفُسَكُم إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَىٰ الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾(٥٧) وليس المقت مثل المقت .

وهكذا وصف نفسه بالمكر والكيد ، كما وصف عبده بذلك ، فقال : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ﴾(٥٨) وقال : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وأَكِيدُ كَيْدًا﴾(٥٩) وليس المكر كالمكر ، ولا الكيد كالكيد .

ووصف نفسه بالعمل ، فقال : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾(٦٠) ووصف عبده بالعمل فقال : ﴿جَزاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليس العمل كالعمل .

---

(٥١) سورة التكوير الآيتان (٢٨ ، ٢٩) .
(٥٢) سورة الانسان الآيتان (٢٩ ، ٣٠) .
(٥٣) سورة الأنفال الآية (٦٧) .
(٥٤) سورة المائدة الآية (٥٤) .
(٥٥) سورة آل عمران الآية (٣١) .
(٥٦) سورة المجادلة الآية (٢٢) .
(٥٧) سورة غافر الآية (١٠) .
(٥٨) سورة الأنفال الآية (٣٠) .
(٥٩) سورة الطارق الآيتان (١٥ ، ١٦) .
(٦٠) سورة يس الآية (٧١) .
(*) سورة السجدة الآية (١٧) .

ووصف نفسه بالمناداة والمناجاة ، فقال : ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾[٦١] وقال : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾[٦٢] وقال : ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾[٦٣] ووصف عباده بالمناداة والمناجاة ، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُم لا يَعْقِلُونَ﴾[٦٤] وقال : ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾[٦٥] وقال : ﴿إِذَا تَنَاجَيتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ والعُدْوانِ﴾[٦٦] . وليس المناداة ولا المناجاة كالمناجاة والمناداة .

ووصف نفسه بالتكلم فى قوله : ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[٦٧] وقوله : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[٦٨] وقوله : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾[٦٩] ووصف عبده بالتكليم فى قوله : ﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ اليَومَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[٧٠] وليس التكليم كالتكليم . ووصف نفسه بالتنبئة ، ووصف بعض الخلق بالتنبئة فقال : ﴿وإِذْ أَسَرَّ النَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِى العَلِيمُ الخَبِيرُ﴾[٧١] وليس الإنباء كالإنباء .

ووصف نفسه بالتعليم ، ووصف عبده بالتعليم ، فقال : ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ البَيانَ﴾[٧٢] وقال : ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾[٧٣] وقال : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾[٧٤] وليس التعليم كالتعليم .

وهكذا وصف نفسه بالغضب فقال : ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾[٧٥] ووصف

---

(٦١) سورة مريم الآية (٥٢) .
(٦٢) سورة القصص الآية (٦٢) .
(٦٣) سورة الأعراف الآية (٢٢) .
(٦٤) سورة الحجرات الآية (٤) .
(٦٥) سورة المجادلة الآية (١٢) .
(٦٦) سورة المجادلة الآية (٩) .
(٦٧) سورة النساء الآية (١٦٤) .
(٦٨) سورة الأعراف الآية (١٤٣) .
(٦٩) سورة البقرة الآية (٢٥٣) .
(٧٠) سورة يوسف الآية (٥٤) .
(٧١) سورة التحريم الآية (٣) .
(٧٢) سورة الرحمن الآية (١ : ٤) .
(٧٣) سورة المائدة الآية (٤)
(٧٤) سورة آل عمران الآية (١٦٤) .
(٧٥) سورة الفتح الآية (٦) .

عبده بالغضب فى قوله : ﴿وَلَمَّا رَجعَ مُوسَىٰ إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾[٧٦] وليس الغضب كالغضب .

ووصف نفسه بأنه استوى على عرشه ، فذكر ذلك فى سبع مواضع من كتابه ، أنه استوى على العرش ، ووصف بعض خلقه بالاستواء على غيره فى مثل قوله : ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾[٧٧] وقوله : ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَىٰ الفُلْكِ﴾ وقوله : ﴿واسْتَوتْ عَلَى الجُودِىّ﴾[٧٩] وليس الاستواء كالاستواء .

ووصف نفسه ببسط اليدين فقال : ﴿وَقَالَتْ اليهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ولُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[٨٠] .

ووصف بعض خلقه ببسط اليد فى قوله : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ﴾[٨١] وليس اليد كاليد ، ولا البسط كالبسط ؛ وإذا كان المراد بالبسط الإعطاء والجود : فليس إعطاء الله كاعطاء خلقه ، ولا جوده كجودهم ، ونظائر هذا كثيرة .

فلابد من إثبات ما أثبته الله لنفسه ، ونفى مماثلته بخلقه .

فمن قال : ليس لله علم ، ولا قوة ولا رحمة ولا كلام ، ولا يحب ولا يرضى ولا نادى ، ولا ناجى ، ولا استوى : كان معطلا جاحداً ، ممثلا لله بالمعدومات والجمادات .

ومن قال له علم كعلمى ، أو قوة كقوتى ، أو حب كحبى ، أو رضاء كرضائى أو يدان كيداى أو استواء كاستوائى كان مشبهاً ممثلا لله بالحيوانات ؛ بل لابد من إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل .

ويتبين هذا

بأصلين شريفين .

ومثلين مضروبين ، ولله المثل الاعلى

وبخاتمة جامعة

---

(٧٦) سورة الأعراف الآية (١٥٠) .
(٧٧) سورة الزخرف الآية (١٣) .
(٧٨) سورة المؤمنون الآية (٢٨) .
(٧٩) سورة هود الآية (٤٤) .
(٨٠) سورة المائدة الآية (٦٤) .
(٨١) سورة الاسراء الآية (٢٩) .

إثبات بعض الصفات إثبات للباقي

فأما الاصلان : فأحدهما أن يقال : (القول فى بعض الصفات كالقول فى بعض) فإن كان المخاطب ممن يقول : بأن الله حى بحياة ، عليم بعلم ، قدير بقدرة ، سميع بسمع ، بصير يبصر متكلم بكلام ، مريد بإرادة ، ويجعل ذلك كله حقيقة ، وينازع فى محبته ورضاه ، وغضبه وكراهته ، فيجعل ذلك مجازاً ، ويفسره إما بالإرادة ، وإما ببعض المخلوقات ، من النعم والعقوبات .

فيقال له : لا فرق بين ما نفيته ، وبين ما أثبته ، بل القول فى أحدهما كالقول فى الآخر ؛ فإن قلت : إن إرادته مثل إرادة المخلوقين فكذلك محبته ورضاه وغضبه وهذا هو التمثيل .

وإن قلت : إن له إرادة تليق به ؛ كما أن للمخلوق إرادة تليق به ، قيل لك : وكذلك له محبة تليق به ، وللمخلوق محبة تليق به ، وله رضا وغضب يليق به ، وللمخلوق رضا وغضب يليق به .

وإن قلت : الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام ، فيقال له : والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة ، أو دفع مضرة ، فإن قلت : هذه إرادة المخلوق قيل لك : وهذا غضب المخلوق .

وكذلك يلزم القول فى كلامه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته ؛ إن نفى عنه الغضب ، والمحبة ، والرضا ، ونحو ذلك مما هو من خصائص المخلوقين ؛ فهذا منتف عن السمع والبصر ، والكلام وجميع الصفات .

وإن قال : إنه لا حقيقة لهذا إلا ما يختص بالمخلوقين ؛ فيجب نفيه عنه . قيل له : وهكذا السمع ، والبصر ، والكلام ، والعلم ، والقدرة .

فهذا المفرق بين بعض الصفات وبعض يقال له فيما نفاه كما يقوله هو لمنازعه فيما أثبته .

فإذا قال المعتزلى[٨٢] : ليس له إرادة ، ولا كلام قائم به ؛ لأن هذه الصفات لا تقوم إلا بالمخلوقات ، فإنه يبين للمعتزلى أن هذه الصفات يتصف بها القديم ، ولا تكون كصفات المحدثات ، فهكذا يقول له المثبتون لسائر الصفات من المحبة والرضا ونحو ذلك .

فإن قال : تلك الصفات أثبتها بالعقل ، لأن الفعل الحادث دل على القدرة ، والتخصيص دل على الإرادة ، والإحكام دل على العلم ، وهذه الصفات مستلزمة للحياة ، والحى لا يخلو عن السمع ، والبصر ، والكلام ، أو ضد ذلك .

قال له سائر أهل الإثبات : لك جوابان .

أحدهما أن يقال : عدم الدليل المعين لا يستلزم عدم المدلول المعين ، فثبت أن ما سلكت من الدليل العقلى لا يثبت ذلك ، فإنه لا ينفيه .

وليس لك أن تنفيه بغير دليل ، لأن النافى عليه الدليل كما على المثبت ، والسمع قد دل عليه ، ولم يعارض ذلك معارض عقلى ولا سمعى ، فيجب إثبات ما أثبته الدليل ، السالم عن المعارض المقاوم .

---

(٨٢) جاء فى مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الاشعرى (٢/١٠٤)

(٩٨) هل الإرادة مختارة ؟

واختلفوا ــ المعتزلة ــ فى الإرادة : هل هى مختارة أم اختيار ليست بمختارة ؟ على مقالتين

(١) فقال قوم : هى مختارة كما أنها اختيار ولم يجيزوا أن تكون مرادة كما أنها مختارة

(٢) وقال قائلون : هى اختيار وليست بمختارة

(٩٩) هل أفعال الله مختارة ؟

واختلفوا ــ المعتزلة ــ فى أفعال الله عز وجل : هل هى كلها مختارة أم لا ؟

على أربعة أقاويل :

(١) فقال قائلون : منها ماهو اختيار ومنها ماهو مختار

(٢) وقال بعضهم : كلها مختارة لا باختيار غيرها بل هى اختيار كما كانت مرادة لا بإرادة غيرها وهذا قول (البغداديين)

(٣) وقال قائلون : ما كان من أفعال الله له ترك كالأعراض فهو مختار ومالا ترك له كالأجسام فهو اختيار وليس بمختار.

(٤) وقال قائلون : ليس كل أفعال العباد مختارة بل منها مالا يقال إنه مختار وجميعاً لا يقال له اختيار .

وانظر أيضا :الملل والنحل للشهرستانى

الثانى أن يقال : يمكن إثبات هذه الصفات بنظير ما أثبت به تلك من العقليات .

فيقال نفع العباد بالإحسان إليهم يدل على الرحمة ، كدلالة التخصيص على المشيئة ، وإكرام الطائعين[٨٣] يدل على محبتهم ، وعقاب الكافرين[٨٤] يدل على بغضهم ، كما قد ثبت بالشهادة والخبر : من إكرام أوليائه وعقاب أعدائه ، والغايات المحمودة فى مفعولاته ومأموراته ــ وهى ما تنتهى إليه مفعولاته ومأموراته من العواقب الحميدة ــ تدل على حكمته البالغة ؛ كما يدل التخصيص على المشيئة ، وأولى : لقوة العلة الغائية ؛ ولهذا كان ما فى القرآن من بيان ما فى مخلوقاته من النعم والحكم : أعظم مما فى القرآن من بيان ما فيها من الدلالة على محض المشيئة .

وان كان المخاطب ممن ينكر الصفات ويقر بالأسماء ، كالمعتزلى الذى يقول : أنه حى عليم قدير ، وينكر أن يتصف بالحياة والعلم والقدرة .

قيل له : لا فرق بين إثبات الأسماء ، وإثبات الصفات ، فإنك إن قلت : إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضى تشبيهاً أو تجسيماً ، لأنا لا نجد فى الشاهد متصفا بالصفات إلا ما هو جسم ، قيل لك : ولا نجد فى الشاهد ما هو مسمى حى عليم قدير إلا ما هو جسم ، فإن نفيت ما نفيت لكونك لم تجده فى الشاهد إلا للجسم فانف الأسماء ، بل وكل شيء لأنك لا تجده فى الشاهد إلا للجسم .

فكل ما يحتج به من نفى الصفات يحتج به نافى الأسماء الحسنى ؛ فما كان جواباً لذلك كان جوابا لمثبتى الصفات .

وإن كان المخاطب من الغلاة نفاة الأسماء والصفات ، وقال لا أقول : هو موجود ،

---

(٨٣) نسوق مثالا على إكرام الطائعين من القرآن الكريم قال تعالى : وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين (٢٠) اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون (٢١) ومالى لاأعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون (٢٢) أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون (٢٣) إنى إذا لفى ضلال مبين (٢٤) إنى آمنت بربكم فاسمعون (٢٥) قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون (٢٦) بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين (٢٧) (سورة يس ٢٠ : ٢٧)

(٨٤) قال تعالى فى سورة يس أيضا .

وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين (٢٨) إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون (٢٩) ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون (٣٠) ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون (٣١) (سورة يس ٢٨ : ٣١)

ولا حى ، ولا عليم ، ولا قدير ؛ بل هذه الأسماء لمخلوقاته ، إذ هى مجاز ، لأن إثبات ذلك يستلزم التشبيه بالموجود الحى العليم .

قيل له : وكذلك إذا قلت : ليس بموجود ، ولا حى ، ولا عليم ، ولا قدير : كان ذلك أقبح من التشبيه بالموجودات .

فإن قال : أنا أنفى النفى والإثبات . قيل له : فيلزمك التشبيه بما اجتمع فيه النقيضان من الممتنعات ، فإنه يمتنع أن يكون الشيء موجوداً معدوماً ، أو لا موجوداً ولا معدوماً ، ويمتنع أن يكون يوصف ذلك باجتماع الوجود والعدم ، أو الحياة والموت ، أو العلم والجهل ، أو يوصف بنفى الوجود والعدم ، ونفى الحياة والموت ، ونفى العلم والجهل .

فإن قلت إنما يمتنع نفى النقيضين عما يكون قابلا لهما ،وهذان يتقابلان تقابل العدم والملكة ؛ لا تقابل السلب والإيجاب ، فإن الجدار لا يقال له أعمى ولا بصير ، ولا حى ولا ميت ، إذ ليس بقابل لهما .

قيل لك : أولاً هذا لا يصح فى الوجود والعدم ، فإنهما متقابلان تقابل السلب والإيجاب باتفاق العقلاء ؛ فيلزم من رفع أحدهما ثبوت الآخر .

وأما ما ذكرته من الحياة والموت ، والعلم والجهل : فهذا اصطلاح اصطلحت عليه المتفلسفة المشاءون ، والاصطلاحات اللفظية ليست دليلا على نفى الحقائق العقلية ، وقد قال الله تعالى : ﴿**والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وهُمْ يُخْلَقُون * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ومَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**﴾[٨٥] فسمى الجماد ميتاً ، وهذا مشهور فى لغة العرب وغيرهم .

وقيل لك ثانياً : فما لا يقبل الاتصاف بالحياة والموت والعمى والبصر ونحو ذلك من المتقابلات أنقص مما يقبل ذلك ــ فالأعمى الذى يقبل الاتصاف بالبصر أكمل من الجماد الذى لا يقبل واحداً منهما ، فأنت فررت من تشبيهه بالحيوانات القابلة لصفات الكمال ، ووصفته بصفات الجمادات التى لا تقبل ذلك .

وأيضاً فما لا يقبل الوجود والعدم : أعظم امتناعاً من القابل للوجود والعدم ؛ بل

(٨٥) سورة النحل ــ الآيتان ــ (٢٠ ، ٢١)

ومن اجتماع الوجود والعدم ، ونفيهما جميعاً ،فما نفيت عنه قبول الوجود والعدم : كان أعظم امتناعاً مما نفيت عنه الوجود والعدم ، وإذا كان هذا ممتنعاً فى صرائح العقول فذاك أعظم امتناعاً ؛ فجعلت الوجود الواجب الذى لا يقبل العدم هو أعظم الممتنعات . وهذا غاية التناقض والفساد .

وهؤلاء الباطنية[86] منهم من يصرح برفع النقيضين : الوجود والعدم ؛ ورفعهما كجمعهما . ومن يقول لا أثبت واحداً منهما فامتناعه عن إثبات أحدهما فى نفس الأمر لا يمنع تحقق واحد منهما فى نفس الأمر ، وإنما هو كجهل الجاهل وسكوت الساكت الذى لا يعبر عن الحقائق . وإذا كان ما لا يقبل الوجود ولا العدم أعظم امتناعاً مما يقدر قبولهَ لهما — مع نفيهما عنه — فما يقدر لا يقبل الحياة ولا الموت ، ولا العلم ولا الجهل ، ولا القدرة ولا العجز ، ولا الكلام ولا الخرس ، ولا العمى ولا البصر ، ولا السمع ولا الصمم : أقرب إلى المعدوم الممتنع مما يقدر قابلا لهما — مع نفيهما عنه — وحينئذ فنفيهما مع كونه قابلا لهما أقرب إلى الوجود والممكن ، وما جاز لواجب الوجود — قابلا — وجب له ؛ لعدم توقف صفاته على غيره ؛ فإذا جاز القبول وجب ؛ وإذا جاز وجود القبول وجب ؛ وقد بسط هذا فى موضع آخر . وبين وجوب اتصافه بصفات الكمال التى لا نقص فيها بوجه من الوجوه .

وقيل له أيضاً : اتفاق المسميين فى بعض الأسماء والصفات : ليس هو التشبيه والتمثيل ، الذى نفته الأدلة السمعيات والعقليات ، وإنما نفت ما يستلزم اشتراكهما فيما يختص به الخالق مما يختص بوجوبه أو جوازه أو امتناعه ؛ فلا يجوز أن يشركه فيه مخلوق ، ولا يشركه مخلوق فى شىء من خصائصه — سبحانه وتعالى — .

وأما ما نفيته فهو ثابت بالشرع والعقل ، وتسميتك ذلك تشبيهاً وتجسيما تمويه[87]

---

(٨٦) الباطنية : هى حركة هدم الإسلام من داخله إذ أن رجال هذه الحركة يتسمون بأسماء المسلمين وأحياناً يؤدون مشاعر المسلمين من صلاة وصوم وحج وزكاة وبعض النوافل ،لكن الهدف واحد هو الكيد للاسلام وإنهم لما لم يستطيعوا أن يأتوا الاسلام من الخارج فأرادوا أن يقوضوا دعائمه من الداخل لكن تصدى أئمة الهدى والرشاد لهم بالمرصاد وأبانوا زيغهم .

وهذه الحركة لها أسماء وألقاب منها الإسماعيلية والحشيشية «والقرامطة والمزدكية والباطنية بالعراق» وبخراسان : التعليمية والملحدة .. فقيل فيهم أنهم نفاة الصفات حقيقة — معطلة الذات عن جميع الصفات — الملل والنحل للشهرستانى (١٩٣/١)

(٨٧) تمويه : خداع وغرار وغش

على الجهال ، الذين يظنون أن كل معنى سماه مسم بهذا الاسم يجب نفيه ؛ ولو ساغ هذا : لكان كل مبطل يسمى الحق بأسماء ينفر عنها بعض الناس ليكذب الناس بالحق المعلوم بالسمع والعقل ، وبهذه الطريقة : أفسدت الملاحدة على طوائف الناس عقلهم ، ودينهم ، حتى أخرجوهم إلى أعظم الكفر والجهالة ، وأبلغ الغى والضلالة .

وإن قال نفاة الصفات : إثبات العلم والقدرة والإرادة مستلزم تعدد الصفات ، وهذا تركيب ممتنع . قيل : وإذا قلتم : هو موجود واجب ، وعقل وعاقل ومعقول وعاشق ومعشوق ولذيذ وملتذ ولذة . أفليس المفهوم من هذا هو المفهوم من هذا ؟ فهذه معان متعددة متغايرة فى العقل ، وهذا تركيب عندكم ، وأنتم تثبتونه وتسمونه توحيداً .

فإن قالوا : هذا توحيد فى الحقيقة وليس هذا تركيباً ممتنعا . قيل لهم : واتصاف الذات بالصفات اللازمة لها توحيد فى الحقيقة ؛ وليس هو تركيباً ممتنعاً .

وذلك أنه من المعلوم فى صريح العقول أنه ليس معنى كون الشيء عالما هو معنى كونه قادراً ، ولا نفس ذاته هو نفس كونه عالماً قادراً ، فمن جوز أن تكون هذه الصفة هى الموصوف فهو من أعظم الناس سفسطة[88] ، ثم إنه متناقض ، فإنه إن جوز ذلك جاز أن يكون وجود هذا هو وجود هذا . فيكون الوجود واحدا بالعين لا بالنوع ، وحينئذ فإذا كان وجود الممكن هو وجود الواجب كان وجود كل مخلوق يعدم بعدم وجوده ، ويوجد بعدم عدمه : هو نفس وجود الحق القديم الدائم الباقى ، الذى لا يقبل العدم ، وإذا قدر هذا كان الوجود الواجب موصوفاً بكل تشبيه وتجسيم ، وكل نقص وكل عيب ؛ كما يصرح بذلك (أهل وحدة الوجود)[89] الذين طردوا هذا الأصل الفاسد ، وحينئذ فتكون أقوال نفاة الصفات باطلة على كل تقدير .

وهذا باب مطرد ، فإن كل واحد من النفاة لما أخبر به الرسول من الصفات : لا ينفى شيئاً فراراً مما هو محذور إلا وقد أثبت ما يلزمه فيه نظير ما فر منه ، فلابد فى آخر الأمر من أن يثبت موجوداً واجباً قديماً ، متصفاً بصفات تميزه عن غيره ، ولا يكون فيها مماثلا لخلقه .

---

(٨٨) سفسطة : الجدل العقيم الذى لا هدف من ورائه إلا الجدل وهو نسبة إلى السوفسطائيين.

(٨٩) هم القائلون بوحدة الوجود مثل محيى الدين بن عربى والحلاج وعفيف الدين التلمسانى وانظر رسالة الإمام ابن تيمية واسمها حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود ضمن مجموع الرسائل والمسائل المجلد (٤ — ٥)

فيقال له : هكذا القول فى جميع الصفات ، وكل ما تثبته من الأسماء والصفات : فلابد أن يدل على قدر تتواطأ فيه المسميات ، ولولا ذلك لما فهم الخطاب ؛ ولكن نعلم أن ما اختص الله به ، وامتاز عن خلقه : أعظم مما يخطر بالبال ، أو يدور فى الخيال .

القول بالصفات كالقول بالذات

أن يقال : (القول فى الصفات كالقول فى الذات) ، فإن الله ليس كمثله شئ لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله . فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات . فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل سائر الصفات .

فإذا قال السائل : كيف استوى على العرش[٩٠] ؟ قيل له كما قال ربيعة ومالك وغيرهما رضى الله عنهما : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عن الكيفية بدعة ، لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر ، ولا يمكنهم الإجابة عنه .

وكذلك إذا قال : كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا ؟ قيل له : كيف هو ؟ فإذا قال : لا أعلم كيفيته ، قيل له : ونحن لا نعلم كيفية نزوله ، إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف ، وهو فرع له وتابع له ، فكيف تطالبنى بالعلم بكيفية سمعه وبصره ، وتكليمه ، واستوائه ونزوله ، وأنت لا تعلم كيفية ذاته[٩١] .

وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة فى نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شئ ، فسمعه وبصره وكلامه ، ونزوله واستواؤه : ثابت فى نفس الأمر ، وهو متصف بصفات الكمال التى لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ، ونزولهم واستواؤهم .

وهذا الكلام لازم لهم فى العقليات ، وفى تأويل السمعيات : فإن من أثبت شيئاً ونفى شيئاً بالعقل ـــ إذاً ـــ ألزم فيما نفاه الصفات التى جاء بها الكتاب والسنة نظير ما يلزمه فيما أثبته ، ولو طولب بالفرق بين المحذور فى هذا وهذا : لم يجد بينهما فرقاً .

ولهذا لا يوجد لنفاة بعض الصفات دون بعض ـــ الذين يوجبون فيما نفوه : إما

(٩٠) جاء فى فصل المقال لابن رشد ص ٣٣: الاشعريون .. يتأولون آية الاستواء وحديث النزول. والحنابلة تحمل ذلك على ظاهره، وقد عقد الإمام جلال الدين السيوطى مقارنة بين التفسير والتأويل مقارنة علمية قيمة ـ النوع السابع والسبعون من الاتقان (٢٢١/٢) .

(٩١) مما نهانا عنه الشارع الحكيم البحث عن ذات الله إنما أمرنا بالتخلق بصفاته

التفويض[٩٢] ؛ وإما التأويل المخالف لمقتضى اللفظ[٩٣] ـــ قانون مستقيم . فإذا قيل لهم : لم تأولتم هذا وأقررتم هذا والسؤال فيهما واحد ؟ لم يكن لهم جواب صحيح ، فهذا تناقضهم فى النفى .

وكذا تناقضهم فى الإثبات ؛ فإن من تأول النصوص على معنى من المعانى التى يثبتها ، فإنهم إذا صرفوا النص عن المعنى الذى هو مقتضاه إلى معنى آخر : لزمهم فى المعنى المصروف إليه ما كان يلزمهم فى المعنى المصروف عنه .

فإذا قال قائل : تأويل محبته ورضاه ، وغضبه وسخطه : هو إرادته للثواب والعقاب ؛ كان ما يلزمه فى الإرادة نظير ما يلزمه فى الحب والمقت ، والرضا والسخط .

ولو فسر ذلك بمفعولاته ، وهو ما يخلقه من الثواب والعقاب ، فإنه يلزمه فى ذلك نظير ما فر منه ، فإن الفعل لابد أن يقوم أولا بالفاعل ، والثواب والعقاب المفعول إنما يكون على فعل ما يحبه ويرضاه ، ويسخطه ويبغضه المثيب المعاقب ، فهم إن أثبتوا الفعل على مثل الوجه المعقول فى الشاهد للعبد مثلوا ، وإن أثبتوه على خلاف ذلك فكذلك الصفات .

---

(٩٢) التفويض : تقول فوضت أمرى لله أى تركته له ، ويقول ابن تيمية عن التفويض فى درء تعارض العقل مع النقل الجزء الأول القسم الأول ص ٢٠١ .

وأما التفويض : فإن من المعلوم أن الله تعالى أمرنا أن نتدبر القرآن وحضنا على عقله وفهمه فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الاعراض عن فهمه ومعرفته وعقله .

(٩٣) يرى ابن تيمية أن التأويل المقبول هو : ما دل على مراد المتكلم ودرء تعارض العقل مع النقل ج القسم الأول ص ٢٠١ .

ما يثبت مِن الصِّفات

وأما (المثلان المضروبان) : فإن الله ــ سبحانه وتعالى ــ أخبرنا عما فى الجنة من المخلوقات : من أصناف المطاعم والملابس ، والمناكح والمساكن ؛ فأخبرنا أن فيها لبناً وعسلا ، وخمراً وماء ، ولحماً وحريراً وذهباً وفضة ، وفاكهة وحوراً وقصوراً .

وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس فى الدنيا شئ مما فى الجنة إلا الأسماء .

وإذا كانت تلك الحقائق التى أخبر الله عنها هى موافقة فى الأسماء للحقائق الموجودة فى الدنيا وليست مماثلة لها ؛ بل بينهما من التباين ما لا يعلمه إلا الله تعالى : فالخالق ــ سبحانه وتعالى ــ أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق ، ومباينته لمخلوقاته : أعظم من مباينة موجود الآخرة لموجود الدنيا ، إذ المخلوق أقرب إلى المخلوق الموافق له فى الاسم من الخالق إلى المخلوق ، وهذا بين واضح ، ولهذا افترق الناس فى هذا المقام ثلاث فرق :

فالسلف والأئمة وأتباعهم : آمنوا بما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر ، مع علمهم بالمباينة التى بين ما فى الدنيا وبين ما فى الآخرة ، وأن مباينة الله لخلقه أعظم .

والفريق الثانى : الذين أثبتوا ما أخبر الله به فى الآخرة من الثواب والعقاب ، ونفوا كثيراً مما أخبر به من الصفات ؛ مثل طوائف من أهل الكلام .

والفريق الثالث : نفوا هذا وهذا ، كالقرامطة ، والباطنية ، والفلاسفة أتباع المشائين ، ونحوهم من الملاحدة الذين ينكرون حقائق ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر .

ثم إن كثيراً منهم يجعلون الأمر والنهى من هذا الباب ؛ فيجعلون الشرائع المأمور بها ، والمحظورات المنهى عنها : لها تأويلات باطنة تخالف ما يعرفه المسلمون منها ، كما يتأولون من الصلوات الخمس ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت . فيقولون : إن الصلوات الخمس معرفة أسرارهم ، وإن صيام رمضان كتمان أسرارهم ، وإن حج البيت السفر إلى شيوخهم ، ونحو ذلك من التأويلات التى يعلم بالاضطرار أنها كذب وافتراء على الرسل

صلوات الله عليهم ، وتحريف لكلام الله ورسوله عن مواضعه ، وإلحاد فى آيات الله[٩٤] .

وقد يقولون : الشرائع تلزم العامة دون الخاصة ، فإذا صار الرجل من عارفيهم ومحققيهم وموحديهم : رفعوا عنه الواجبات ، وأباحوا له المحظورات ، وقد يدخل فى المنتسبين إلى التصوف والسلوك من يدخل فى بعض هذه المذاهب .

وهؤلاء الباطنية : هم الملاحدة الذين أجمع المسلمون على أنهم أكفر من اليهود والنصارى ، وما يحتج به على الملاحدة أهل الإيمان والاثبات : يحتج به كل من كان من أهل الإيمان والإثبات على من يشرك هؤلاء فى بعض إلحادهم ، فإذا أثبت لله تعالى الصفات ونفى عنه مماثلة المخلوقات ــ كما دل على ذلك الآيات البينات ــ كان ذلك هو الحق الذى يوافق المعقول والمنقول ، ويهدم أساس الإلحاد والضلالات .

والله سبحانه لا تضرب له الأمثال[٩٥] التى فيها مماثلة لخلقه ، فإن الله لا مثيل له ؛ بل له «المثل الأعلى» ، فلا يجوز أن يشرك هو والمخلوقات فى قياس تمثيل ، ولا فى قياس شمول تستوى أفراده ، ولكن يستعمل فى حقه المثل الأعلى ، وهو أن كل ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق أولى به ، وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولى بالتنزيه عنه ، فإذا كان المخلوق منزهاً عن مماثلة المخلوق مع الموافقة فى الاسم : فالخالق أولى أن ينزه عن مماثلة المخلوق ، وإن حصلت موافقة فى الاسم .

وهكذا القول فى (المثل الثانى) .

وهو أن (الروح) التى فينا ــ فإنها قد وصفت بصفات ثبوتية وسلبية ، وقد أخبرت النصوص أنها تعرج وتصعد من سماء إلى سماء ، وأنها تقبض من البدن وتسل منه كما تسل الشعرة من العجينة .

والناس مضطربون فيها ؛ فمنهم طوائف من أهل الكلام يجعلونها جزءاً من البدن ، أو صفة من صفاته ، كقول بعضهم : أنها النفس أو الريح التى تردد فى البدن ، وقول بعضهم : إنها الحياة أو المزاج ، أو نفس البدن .

---

(٩٤) هذه المقولات من شطحات الصوفية ومبالغتهم الخارجة عن نطاق العقل والدين .

(٩٥) قال تعالى : ﴿**فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ . (سورة النحل الآية ٧٤)

ومنهم طوائف من أهل الفلسفة يصفون به واجب الوجود عندهم ، وهى أمور لا يتصف بها إلا ممتنع الوجود ، فيقولون : لا هى داخلة فى البدن ولا خارجة ، ولا مباينة له ولا مداخلة له ، ولا متحركة ولا ساكنة ، ولا تصعد ولا تهبط ، ولا هى جسم ولا عرض .

وقد يقولون : إنها لا تدرك الأمور المعينة والحقائق الموجودة فى الخارج وإنما تدرك الأمور الكلية المطلقة .

وقد يقولون : إنها لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا مباينة له ولا مداخلة ، وربما قالوا ليست داخلة فى أجسام العالم ولا خارجة عنها ، مع تفسيرهم للجسم بما لا يقبل الإشارة الحسية ، فيصفونها بأنها لا يمكن الإشارة إليها ، ونحو ذلك من الصفات السلبية ، التى تلحقها بالمعدوم والممتنع[٩٦] .

وإذا قيل لهم : إثبات مثل هذا ممتنع فى ضرورة العقل ، قالوا : بل هذا ممكن بدليل أن الكليات ممكنة موجودة وهى غير مشار إليها ، وقد غفلوا عن كون الكليات لا توجد كلية إلا فى الأذهان لا فى العيان ، فيعتمدون فيما يقولونه فى المبدأ والمعاد على مثل هذا الخيال ، الذى لا يخفى فساده على غالب الجهال .

واضطراب النفاة والمثبتة فى الروح كثير .

وسبب ذلك أن الروح ـــ التى تسمى بالنفس الناطقة عند الفلاسفة ـــ ليست هى من جنس هذا البدن ، ولا من جنس العناصر والمولدات منها ؛ بل هى من جنس آخر مخالف لهذه الأجناس ، فصار هؤلاء لا يعرفونها إلا بالسلوب التى توجب مخالفتها للأجسام المشهودة ، وأولئك يجعلونها من جنس الأجسام المشهودة وكلا القولين خطأ .

وإطلاق القول عليها بأنها جسم أو ليست بجسم يحتاج إلى تفصيل .

فإن لفظ الجسم للناس فيه أقوال متعددة اصطلاحية غير معناه اللغوى .

فإن أهل اللغة يقولون : الجسم هو الجسد والبدن ، وبهذا الاعتبار فالروح ليست

---

(٩٦) واختلف الناس فى الروح والنفس على خمسة عشر قولًا ذكرها الأشعرى فى مقالات الإسلاميين (٢/٢٨) وخلاصة القول الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قوله تعالى ﴿ ويسألونك عن الروح قُل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (سورة الإسراء الآية ـــ ٨٥)

جسما ؛ ولهذا يقولون : الروح والجسم ، كما قال تعالى : ﴿وإذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ ، وإنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[٩٧] وقال تعالى : ﴿وزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ والجِسْمِ﴾[٩٨] .

وأما أهل الكلام : فمنهم من يقول الجسم هو الموجود ؛ ومنهم من يقول : هو القائم بنفسه ، ومنهم من يقول : هو المركب من الجواهر المفردة ، ومنهم من يقول : هو المركب من المادة والصورة ، وكل هؤلاء يقولون : أنه مشار إليه إشارة حسية ، ومنهم من يقول : ليس مركباً من هذا ولا من هذا ، بل هو مما يشار إليه ، ويقال : إنه هنا أو هناك ؛ فعلى هذا إن كانت الروح مما يشار إليها ويتبعها بصر الميت ـــ كما قال : صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الرُّوحَ إذَا خَرَجَتْ تَبِعَهَا الْبَصَرُ» «وَأَنَّهَا تُقْبَضُ وَيُعْرَجُ بِهَا إلَى السَّمَاءِ» ـ كانت الروح جسما بهذا الاصطلاح[٩٩] .

والمقصود : أن الروح إذا كانت موجودة حية ، عالمة قادرة ، سميعة بصيرة : تصعد وتنزل ، وتذهب وتجيء ، ونحو ذلك من الصفات ، والعقول قاصرة عن تكييفها وتحديدها ؛ لأنهم لم يشاهدوا لها نظيرا . والشيء إنما تدرك حقيقته بمشاهدته ، أو مشاهدة نظيره .

فإذا كانت الروح متصفة بهذه الصفات مع عدم مماثلتها لما يشاهد من المخلوقات .

فالخالق أولى بمباينته لمخلوقاته مع اتصافه بما يستحقه من أسمائه وصفاته ؛ وأهل العقول هم أعجز عن أن يحدوه أو يكيفوه منهم عن أن يحدوا الروح أو يكيفوها .

فإذا كان من نفى صفات الروح جاحداً معطلا لها ، ومن مثلها بما يشاهده من المخلوقات جاهلا ممثلا لها بغير شكلها ، وهى مع ذلك ثابتة بحقيقة الإثبات ، مستحقة لما لها من الصفات : فالخالق ـــ سبحانه وتعالى ـــ أولى أن يكون من نفى صفاته جاحداً معطلا ، ومن قاسه بخلقه جاهلا به ممثلا ، وهو ـــ سبحانه وتعالى ـــ ثابت بحقيقة الإثبات ، مستحق لما له من الأسماء والصفات .

---

(٩٧) سورة المنافقون الآية ـــ (٤)

(٩٨) سورة البقرة ـــ الآية (٢٤٧)

(٩٩) يقول أبو الحسن الأشعرى فى مقالات الإسلاميين (٢/٤) اختلف المتكلمون فى الجسم ماهو ؟ على اثنتى عشرة مقالة ، فارجع إليها فى مقالات الإسلاميين .

الخاتمـــة الجامـــعة

القاعـــدة الأولـــى

أن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفى[١٠٠] .

فالإثبات كإخباره بأنه بكل شئ عليم ، وعلى كل شئ قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك .

والنفى كقوله لا تأخذه سنة ولا نوم .

وينبغى أن يعلم أن النفى ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتاً ، وإلا فمجرد النفى ليس فيه مدح ولا كمال ؛ لأن النفى المحض عدم محض ؛ والعدم المحض ليس بشئ ؛ وما ليس بشئ فهو كما قيل : ليس بشئ ؛ فضلا عن أن يكون مدحاً أو كمالاً .

ولأن النفى المحض يوصف به المعدوم والممتنع ، والمعدوم والمتنع لا يوصف بمدح ولا كمال .

فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفى متضمناً لإثبات مدح ، كقوله : ﴿**اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**﴾[١٠١] إلى قوله : ﴿**وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُما**﴾ فنفى السنة والنوم : يتضمن كمال الحياة والقيام ؛ فهو مبين لكمال أنه الحى القيوم ، وكذلك قوله : ﴿**وَلَا يؤُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ أى لا يكرثه ولا يثقله وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها ، بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشئ بنوع كلفة ومشقة ، فإن هذا نقص فى قدرته وعيب فى قوته .

وكذلك قوله : ﴿**لا يَعزُبُ عَنْه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوٰاتِ وَلاَ فِي الأَرضِ**﴾[١٠٢] فإن نفى العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة فى السموات والأرض .

---

(١٠٠) النفى : هو مالا ينجزم « بلا » وهو عبارة عن الإخبار عن ترك الفعل ـ التعريفات للجرجانى (ص ٢١٩) .
(١٠١) سورة البقرة الآية (٢٥٥)
(١٠٢) سورة سبأ الآية (٣)

وكذلك قوله : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وما بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ** ﴾[١٠٣] فإن نفى مس اللغوب ، الذى هو التعب والإعياء دل على كمال القدرة ونهاية القوة ، بخلاف المخلوق الذى يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه .

وكذلك قوله : ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾[١٠٤] إنما نفى الإدراك الذى هو الإحاطة ، كما قاله أكثر العلماء ، ولم ينف مجرد الرؤية ؛ لأن المعدوم لايرى ، وليس فى كونه لايرى مدح ؛ إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحاً ، وإنما المدح فى كونه لايحاط به وإن رؤى ؛ كما أنه لايحاط به وإن علم ، فكما أنه إذا علم لايحاط به علماً : فكذلك إذا رؤى لا يحاط به رؤية .

فكان فى نفى الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحاً وصفة كمال ، وكان ذلك دليلا على إثبات الرؤية لا على نفيها ، لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة ، وهذا هو الحق الذى اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها .

وإذا تأملت ذلك : وجدت كل نفى لا يستلزم ثبوتاً هو مما لم يصف الله به نفسه ، فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب : لم يثبتوا فى الحقيقة إلهاً محموداً ، بل ولا موجوداً وكذلك من شاركهم فى بعض ذلك ، كالذين قالوا لايتكلم أو لا يرى أو ليس فوق العالم ، أو لم يستو على العرش .

ويقولون : ليس بداخل العالم ولا خارجه ، ولا مباين للعالم ولا محايث له ؛ إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم : وليست هى صفة مستلزمة صفة ثبوت .

ولهذا « قال محمود بن سبكتكين » لمن ادعى ذلك فى الخالق : ميز لنا بين هذا الرب الذى تثبته وبين المعدوم . وكذلك كونه لا يتكلم ، أو لا ينزل ، ليس فى ذلك صفة مدح ولا كمال ؛ بل هذه الصفات فيها تشبيه له بالمنقوصات أو المعدومات .

فهذه الصفات : منها ما لا يتصف به إلا المعدوم ، ومنها ما لا يتصف به إلا الجمادات والناقص .

---

(١٠٣) سورة ق الآية (٣٨) .

(١٠٤) سورة الأنعام الآية (١٠٣)

فمن قال : لا هو مباين للعالم ولا مداخل للعالم فهو بمنزلة من قال : لا هو قائم بنفسه ولا لغيره ، ولا قديم ولا محدث ، ولا متقدم على العالم ولا مقارن له .

ومن قال : إنه ليس بحى ، ولا ميت ولاسميع ولابصير ، ولا متكلم : لزمه أن يكون ميتاً أصم أعمى أبكم .

فإن قال : العمى عدم البصر عما من شأنه أن يقبل البصر ، وما لم يقبل البصر كالحائط لا يقال له أعمى ولا بصير .

قيل له : هذا اصطلاح اصطلحتموه ، وإلا فما يوصف بعدم الحياة و السمع و البصر و الكلام : يمكن وصفه بالموت والعمى ، والخرس والعجمة .

وأيضاً فكل موجود يقبل الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها ، فإن الله قادر على جعل الجماد حياً كما جعل عصى موسى حية ابتلعت الحبال والعصى ، وأيضاً فالذى لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقصاً ممن لا يقبل الاتصاف بها مع اتصافه بنقائضها .

فالجماد الذى لا يوصف بالبصر ولا العمى ، ولا الكلام ولا الخرس : أعظم نقصاً من الحى الأعمى الأخرس .

فإذا قيل : إن البارى لا يمكن اتصافه بذلك : كان فى ذلك من وصفه بالنقص أعظم مما إذا وصف بالخرس والعمى والصمم ونحو ذلك ؛ مع إنه إذا جعل غير قابل لها كان تشبيهاً له بالجماد الذى لا يقبل الاتصاف بواحد منها . وهذا تشبيه بالجمادات ؛ لا بالحيوانات . فكيف من قال ذلك على غيره مما يزعم أنه تشبيه بالحى .

وأيضاً فنفس نفى هذه الصفات نقص ، كما أن إثباتها كمال ، فالحياة من حيث هى : هى مع قطع النظر عن تعيين الموصوف بها صفة كمال . وكذلك العلم والقدرة . والسمع والبصر ، والكلام والفعل ونحو ذلك ؛ وما كان صفة كمال : فهو سبحانه أحق أن يتصف به من المخلوقات ، فلو لم يتصف به مع اتصاف المخلوق به : لكان المخلوق أكمل منه .

وأعلن أن الجهمية المحضة كالقرامطة ومن ضاهاهم : ينفون عنه تعالى اتصافه بالنقيضين ، حتى يقولون ليس بموجود ولا ليس بموجود ، ولا حى ولا ليس بحى . ومعلوم أن الخلو عن النقيضين ممتنع فى بدائه العقول كالجمع بين النقيضين .

وآخرون وصفوه بالنفى فقط ، فقالوا ليس بحى ولا سميع ولا بصير ؛ وهؤلاء أعظم كفراً من أولئك من وجه وأولئك أعظم كفراً من هؤلاء من وجه ، فإذا قيل لهؤلاء هذا مستلزم وصفه بنقيض ذلك ، كالموت والصمم والبكم ، قالوا إنما يلزم ذلك لو كان قابلا لذلك ، وهذا الاعتذار يزيد قولهم فساداً .

وكذلك من ضاهى هؤلاء — وهم الذين يقولون : ليس بداخل العالم ولا خارجه ، إذا قيل هذا ممتنع فى ضرورة العقل ، كما إذا قيل : ليس بقديم ولا محدث — ولا واجب ولا ممكن ، ولا قائم بنفسه ، ولا قائم بغيره ، قالوا : هذا إنما يكون إذا كان قابلا لذلك ، والقبول إنما يكون من المتحيز ، فإذا انتفى التحيز انتفى قبول هذين المتناقضين .

فيقال لهم : علم الخلق بامتناع الخلو من هذين النقيضين هو علم مطلق لا يستثنى منه موجود . والتحيز المذكور : إن أريد به كون الأحياز الموجودة تحيط به فهذا هو الداخل فى العالم ؛ وإن أريد به أنه منحازعن المخلوقات ؛ أى مباين لها متميز عنها فهذا هو الخروج ، فالمتحيز يراد به تارة ما هو داخل العالم ، وتارة ما هو خارج العالم ، فإذا قيل ليس بمتحيز كان معناه ليس بداخل العالم ولا خارجه .

فهم غيروا العبارة ليوهموا من لا يفهم حقيقة قولهم أن هذا معنى آخر ، وهو المعنى الذى علم فساده بضرورة العقل ؛ كما فعل أولئك بقولهم : ليس بحى ولا ميت ، ولا موجود ولا معدوم ، ولا عالم ولا جاهل .

القاعـــدة الثانيـــة

أن ما أخبر به الرسول عن ربه فإنه يجب الإيمان به ــ سواء عرفنا معناه أو لم نعرف ــ لأنه الصادق المصدوق ؛ فما جاء فى الكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الإيمان به وإن لم يفهم معناه .

وكذلك ما ثبت باتفاق سلف الأمة وأئمتها ، مع أن هذا الباب يوجد عامته منصوصا فى الكتاب والسنة ، متفق عليه بين سلف الأمة .

وما تنازع فيه المتأخرون نفياً وإثباتاً فليس على أحد ، بل ولا له : أن يوافق أحداً على إثبات لفظه أو نفيه حتى يعرف مراده ، فإن أراد حقاً قبل ، وإن أراد باطلا رد ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقاً ولم يرد جميع معناه ، بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى ، كما تنازع الناس فى الجهة والتحيز وغير ذلك .

فلفظ الجهة قد يراد به شئ موجود غير الله فيكون مخلوقاً ، كما إذا أريد بالجهة نفس العرش ، أو نفس السموات ، وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله تعالى ، كما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم .

ومعلوم أنه ليس فى النص إثبات لفظ الجهة ولا نفيه ، كما فيه إثبات العلو والاستواء ، والفوقية والعروج إليه ونحو ذلك ، وقد علم أن ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق ، والخالق مبين للمخلوق ــ سبحانه وتعالى ــ ليس فى مخلوقاته شئ من ذاته ؛ ولا فى ذاته شئ من مخلوقاته .

فيقال لمن نفى الجهة : أتريد بالجهة أنها شئ موجود مخلوق ؟ فالله ليس داخلا فى المخلوقات ، أم تريد بالجهة ما وراء العالم ؟ فلا ريب أن الله فوق العالم مباين للمخلوقات .

وكذلك يقال لمن قال :الله فى جهة : أتريد بذلك أن الله فوق العالم ؟ أو تريد به أن الله داخل فى شئ من المخلوقات ؟ فإن أردت الأول فهو حق ، وإن أردت الثانى فهو باطل .

وكذلك لفظ التحيز : إن أراد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر ؛ بل قد وسع كرسيه السموات والأرض ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ والسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[١٠٥] .

وقد ثبت فى الصحاح عن النبى ﷺ أنه قال : «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ وَيَطْوِى السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ ؟» وفى حديث آخر : «وَإِنَّهُ لَيَدْحُوهَا كَمَا يَدْحُو الصِّبْيَانُ بِالكُرَةِ» وفى حديث ابن عباس : «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ» .

وإن أراد به أنه منحاز عن المخلوقات : أى مباين لها منفصل عنها ليس حالا فيها : فهو سبحانه كما قال أئمة السنة : فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه .

---

(١٠٥) سورة الزمر الآية ـ ٦٧

(أ) قال السيوطى فى الدر المنثور (٣٣٥/٥) أخرج ابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى هريرة رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول : وذكره

(ب) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن قال ابن «قتيبة فى تأويل مختلف الحديث (ص ١٤١) ط مكتبة المتنبى ، وهو يناقش الذين يذهبون إلى أن الأصابع أريد بها النعم أو الأعضاء يقول : نحن نقول إن هذا الحديث صحيح وإن الذى ذهبوا إليه فى تأويل الأصبع لا يشبه الحديث لأنه عليه السلام قال فى دعائه : يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك . فقالت له إحدى أزواجه : أو تخاف يارسول الله على نفسك فقال : إن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله عزل وجل . فإن كان القلب عندهم بين نعمتين من نعم الله تعالى فهو محفوظ بين النعمتين فلأى شيء دعا بالتثبيت ؟ ولم احتج على المرأة التى قالت له أتخاف على نفسك بما يؤكد قولها وكان ينبغى أن لا يخاف إذا كان القلب محروساً بين نعمتين ويذكر بأنه لا تجوز أن تكون الأصبع ههنا نعمة يقول : ولا نقول «أصبع كأصابعنا ولا يد كأيدينا ولا قبضة كقبضاتنا لأن كل شيء منه عز وجل لا يشبه شيئاً منا» إنما يرى إثبات الصفات دون تعطيل أو تشبيه أو تأويل .

القاعـــدة الثالثـــة

إذا قال القائل : ظاهر النصوص مراد أو ظاهرها ليس بمراد .

فإنه يقال : لفظ الظاهر فيه إجمال واشتراك ؛ فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين أو ما هو من خصائصهم فلا ريب أن هذا غير مراد ؛ ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها ، ولا يرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفراً وباطلا ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذى وصف به نفسه لا يظهر منه إلا ما هو كفر أو ضلال ، والذين يجعلون ظاهرها ذلك يغلطون من وجهين :

تارة يجعلون المعنى الفاسد ظاهر اللفظ ، حتى يجعلوه محتاجاً إلى تأويل يخالف الظاهر ، ولا يكون كذلك .

وتارة يردون المعنى الحق الذى هو ظاهر اللفظ ، لاعتقادهم أنه باطل .

(فالأول) كما قالوا فى قوله : «**عَبْدِى جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِى**» الحديث ، وفى الأثر الآخر : «**الحَجَرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِى الأَرْضِ ، فَمَنْ صَافَحَهُ أَوْ قَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ**» وقوله : «**قُلُوبُ العِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَينِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ**» فقالوا : قد علم أن ليس فى قلوبنا أصابع الحق .

فيقال لهم : ما أعطيتم النصوص حقها من الدلالة لعلمتم أنها لم تدل إلا على حق . أما (الواحد) فقوله : «الحَجَرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِى الأَرْضِ ، فَمَنْ صَافَحَهُ أَوْ قَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ» صريح فى أن الحجر الأسود ليس هو صفة الله ولا هو نفس يمينه ؛ لأنه قال : «**يَمِينُ اللهِ فِى الأَرْضِ**» وقال : «**فَمَنْ قَبَّلَهُ وَصَافَحَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ**» ومعلوم أن المشبه ليس هو المشبه به .

ففى نفس الحديث بيان أن مستلمه ليس مصافحاً لله ؛ وأنه ليس هو نفس يمينه ؛ فكيف يجعل ظاهره كفراً لأنه محتاج إلى التأويل . مع أن هذا الحديث إنما يعرف عن ابن عباس ؟

وأما الحديث الآخر : فهو فى الصحيح مفسراً : « يقول الله:عبدى ! جعتُ فلم تُطعمنى ، فيقول : ربِّ ! كيف أطعمُك وأنت ربُّ العالمين ؟ فيقول : أما علمتَ أن عبدى، فلاناً جاع فلو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندى ، عبدى ! مرضتُ فلم تَعُدنى ، فيقول : ربِّ ! كيف أعودُكَ وأنت ربُّ العالمين ؟ فيقول : أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلو عدتَّه لوجدتنى عنده » .

وهذا صريح فى أن الله سبحانه لم يمرض ولم يجع ، ولكن مرض عبده وجاع عبده ، فجعل جوعه جوعه ، ومرضه مرضه ، مفسراً ذلك بأنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ، ولو عدته لوجدتنى عنده ؛ فلم يبق فى الحديث لفظ يحتاج إلى تأويل .

وأماقوله: قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن : فإنه ليس فى ظاهره أن القلب متصل بالأصابع ، ولا مماس لها ، ولا أنها فى جوفه ، ولا فى قول القائل هذا بين يدى ما يقتضى مباشرته ليديه ؟ وإذا قيل : السحاب المسخر بين السماء والأرض لم يقتض أن يكون مماساً للسماء والأرض،ونظائر هذا كثيرة .

ومما يشبه هذا القول أن يجعل اللفظ نظيراً لما ليس مثله ، كما قيل فى قوله **﴿ما منعَكَ أن تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بيدَى﴾**[١٠٦] ؟ فقيل هو مثل قوله : **﴿أو لَمْ يَرَوْا أنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أيدِينَا أنْعاماً﴾**[١٠٧] ؟ فهذا ليس مثل هذا ؛ لأنه هنا أضاف الفعل إلى الأيدى ؛ فصار شبيها بقوله : **﴿بِمَا كَسَبَتْ أيْدِيهِمْ﴾** وهنا أضاف الفعل إليه فقال : **﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾** ثم قال : **﴿بِيَدَىَّ﴾** .

وأيضاً : فإنه هنا ذكر نفسه المقدسة بصيغة المفرد ، وفى اليدين ذكر لفظ التثنية ، كما فى قوله تعالى : **﴿بَل يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان﴾**[١٠٨] وهناك أضاف الأيدى إلى صيغة الجمع ، فصار كقوله : **﴿تَجْرِى بِأعْيُنِنَا﴾**[١٠٩] .

وهذا فى (الجمع) نظير قوله : **﴿بِيَدِهِ المُلْكُ﴾**[١١٠] ، **﴿وَبِيَدِكَ الخَيْرُ﴾**[١١١] فى (المفرد) فالله سبحانه وتعالى يذكر نفسه تارة بصيغة المفرد مظهراً أو مضمراً ، وتارة

---

(١٠٦) سورة ص الآية (٧٥) .
(١٠٧) سورة يس الآية (٧١)
(١٠٨) سورة المائدة الآية ٦٤
(١٠٩) سورة القمر الآية ١٤
(١١٠) سورة الملك الآية ١
(١١١) سورة آل عمران الآية ٢٦

بصيغة الجمع ، كقوله : ﴿إِنَّا فَتَحنا لَكَ فَتحاً مُّبينا﴾[112] وأمثال ذلك .

ولا يذكر نفسه بصيغة التثنية قط ؛ لأن صيغة الجمع تقتضى التعظيم الذى يستحقه ؛ وربما تدل على معانى أسمائه .

وأما صيغة التثنية فتدل على العدد المحصور وهو مقدس عن ذلك ، فلو قال : ﴿ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لما خَلَقْتُ بيَدى﴾[113] لما كان كقوله : ﴿مما عملت أيدينا﴾[114] وهو نظير قوله : ﴿بِيَدِهِ المُلْكُ﴾ ﴿ وبِيَدِكَ الخَيْرُ﴾ ولو قال (خلقت) بصيغة الإفراد لكان مفارقاً له ؛ فكيف إذا قال خلقت بيدى ؟ بصيغة التثنية .

هذا مع دلالات الأحاديث المستفيضة بل المتواترة وإجماع السلف على مثل ما دل عليه القرآن ، كما هو مبسوط فى موضعه ، مثل قوله : «المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» وأمثال ذلك .

وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع فى معناها من جنس ظاهر النصوص المتفق على معناها — والظاهر هو المراد فى الجميع — فإنَّ الله لما أخبر أنه بكل شىء عليم ، وأنه على كل شىء قدير ، واتفق أهل السنة وأئمة المسلمين على أن هذا على ظاهره ، وإن ظاهر ذلك مراد : كان من المعلوم أنهم لم يريدوا بهذا الظاهر أن يكون علمه كعلمنا وقدرته كقدرتنا .

وكذلك لما اتفقوا على أنه حى حقيقة ، عالم حقيقة ، قادر حقيقة ؛ لم يكن مرادهم أنه مثل المخلوق الذى هو حى عليم قدير ، فكذلك إذا قالوا فى قوله تعالى : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[115] ﴿رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ، وقوله : ﴿ثُمَّ استَوى عَلَى العَرْشِ﴾[116] أنه على ظاهره لم يقتض ذلك أن يكون ظاهره استواء كاستواء المخلوق ، ولا حباً كحبه ، ولا رضا كرضاه .

فإن كان المستمع يظن أن ظاهر الصفات تماثل صفات المخلوقين لزمه أن لا يكون شىء

---

(١١٢) سورة الفتح الآية ١

(١١٣) سورة ص (٧٥)

(١١٤) سورة يس (٧١)

(١١٥) سورة المائدة الآية (٥٤)

(١١٦) سورة الفرقان الآية(٥٩)

من ظاهر ذلك مرادا . وان كان يعتقد أن ظاهرها ما يليق بالخالق ويختصّ به لم يكن له نفى هذا الظاهر ، ونفى أن يكون مراداً إلا بدليل يدل على النفى ؛ وليس فى العقل ولا السمع ما ينفى هذا إلا من جنس ما ينفى به سائر الصفات ، فيكون الكلام فى الجميع واحدا .

وبيان هذا أن صفاتنا منها ما هى أعيان وأجسام ، وهى أبعاض لنا ، كالوجه ، واليد : ومنها ما هو معان وأعراض ، وهى قائمة بنا : كالسمع والبصر والكلام والعلم والقدرة .

ثم إن من المعلوم أن الرب لما وصف نفسه بأنه حى عليم قدير : لم يقل المسلمون إن ظاهر هذا غير مراد ، لأن مفهوم ذلك فى حقه مثل مفهومه فى حقنا ؛ فكذلك لما وصف نفسه بأنه خلق آدم بيديه لم يوجب ذلك أن يكون ظاهره غير مراد ، لأن مفهوم ذلك فى حقه كمفهومه فى حقنا . بل صفة الموصوف تناسبه .

فإذا كانت نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين ، فصفاته كذاته ليست كصفات المخلوقين ، ونسبة صفة المخلوق إليه كنسبة صفة الخالق إليه وليس المنسوب كالمنسوب ، ولا المنسوب إليه كالمنسوب إليه ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : «**تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**» فشبه الرؤية بالرؤية ، ولم يشبه المرئى بالمرئى .

القاعـــدة الرابعـــة

وهو أن كثيرا من الناس يتوهم فى بعض الصفات أو كثير منها ؛ أو أكثرها أو كلها ، أنها تماثل صفات المخلوقين ، ثم يريد أن ينفى ذلك الذى فهمه ، فيقع فى (أربعة أنواع) من المحاذير :

(أحدها) كونه مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين ، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل .

(الثانى) أنه إذا جعل ذلك هو مفهوما وعطله بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله . فيبقى مع جنايته على النصوص ؛ وظنه السيىء الذى ظنه بالله ورسوله — حيث ظن أن الذى يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل — قد عطل ما أودع الله ورسوله فى كلامهما من إثبات الصفات لله ، والمعانى الإلهية بجلال الله تعالى .

(الثالث) أنه ينفى تلك الصفات عن الله عز وجل بغير علم ؛ فيكون معطلا لما يستحقه الرب .

(الرابع) أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات ، من صفات الأموات والجمادات ، أو صفات المعدومات ، فيكون قد عطل به صفات الكمال التى يستحقها الرب ، ومثله بالمنقوصات والمعدومات ، وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات ، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات . فيجمع فى كلام الله وفى الله بين التعطيل والتمثيل ؛ فيكون ملحداً فى أسماء الله وآياته .

(مثال) ذلك أن النصوص كلها دلت على وصف الإله ، بالعلو والفوقية على المخلوقات ، واستوائه على العرش — فأما علوه ومباينته للمخلوقات فيعلم بالعقل الموافق للسمع ؛ وأما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السمع . وليس فى الكتاب والسنة وصف له بأنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا مباينه ولا مداخله .

فيظن المتوهم أنه إذا وصف بالاستواء على العرش : كان استواؤه كاستواء الإنسان

على ظهور الفلك والأنعام ؛ كقوله : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾[117] .

فيتخيل له أنه إذا كان مستوياً على العرش كان محتاجاً إليه ، كحاجة المستوى على الفلك والأنعام ، فلو غرقت السفينة لسقط المستوى عليها ولو عثرت الدابة لخر المستوى عليها . فقياس هذا أنه لو عدم العرش لسقط الرب سبحانه وتعالى .

ثم يريد بزعمه أن ينفى هذا فيقول : ليس استواؤه بقعود ولا استقرار ، ولا يعلم أن مسمى القعود والاستقرار يقال فيه ما يقال فى مسمى الاستواء ؛ فإن كانت الحاجة داخلة فى ذلك : فلا فرق بين الاستواء والقعود والاستقرار ، وليس هو بهذا المعنى مستوياً ولا مستقراً ولا قاعداً ، وإن لم يدخل فى مسمى ذلك إلا ما يدخل فى مسمى الاستواء فإثبات أحدهما ونفى الآخر تحكم .

وقد علم أن بين مسمى الاستواء والاستقرار والقعود فروقاً معروفة[118]

ولكن المقصود هنا أن يعلم خطأ من ينفى الشيء مع إثبات نظيره ، وكأن هذا الخطأ من خطئه فى مفهوم استوائه على العرش ، حيث ظن أنه مثل استواء الإنسان على ظهور الأنعام والفلك ، وليس فى هذا اللفظ ما يدل على ذلك ؛ لأنه أضاف الاستواء إلى نفسه الكريمة كما أضاف إليه سائر أفعاله وصفاته .

فذكر أنه خلق ثم استوى ، كما ذكر أنه قدر فهدى ، وأنه بنى السماء بأيد ، وكما ذكر أنه مع موسى وهارون يسمع ويرى وأمثال ذلك .

فلم يذكر استواء مطلقاً يصلح للمخلوق ، ولا عاما يتناول المخلوق . كما لم يذكر مثل ذلك فى سائر صفاته ، وإنما ذكر استواء أضافه إلى نفسه الكريمة .

فلو قدر — على وجه الفرض الممتنع — أنه هو مثل خلقه — تعالى عن ذلك — لكان استواؤه مثل استواء خلقه ، أما إذا كان هو ليس مماثلا لخلقه بل قد علم أنهُ الغنى عن الخلق ، وأنه الخالق للعرش ولغيره ، وأن كل ما سواه مفتقر إليه وهو الغنى عن

---

(١١٧) سورة الزخرف الآيتان ١٢ — ١٣ .

(١١٨) فروق فى الدلالة فالاستواء يفيد الاستعلاء والتمكن والاستقرار يفيد الثبوت والتمكن والقعود لا يكون إلا عن وقوف

كل ما سواه ، وهو لم يذكر إلا استواء يخصه ، لم يذكر استواء يتناول غيره ولا يصلح له ـــ كما لم يذكر فى علمه وقدرته ورؤيته وسمعه وخلقه إلا ما يختص به ـــ فكيف يجوز أن يتوهم أنه إذا كان مستوياً على العرش كان محتاجاً إليه ، وأنه لو سقط العرش لخر من عليه ؟ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

هل هذا إلا جهل محض وضلال ممن فهم ذلك وتوهمه ، أو ظنه ظاهر اللفظ ومدلوله ، أو جوَّز ذلك على رب العالمين الغنى عن الخلق ؟

بل لو قدر أن جاهلا فهم مثل هذا وتوهمه لبين له أن هذا لا يجوز ، وأنه لم يدل اللفظ عليه أصلا ، كما لم يدل على نظائره فى سائر ما وصف به الرب نفسه .

فلما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾[119] فهل يتوهم متوهم أن بناءه مثل بناء الآدمى المحتاج ، الذى يحتاج إلى زنبيل ومجارف وضرب لبن وجَبْل طين وأعوان ؟

ثم قد علم أن الله تعالى خلق العالم بعضه فوق بعض ، ولم يجعل عاليه مفتقراً إلى سافله ، فالهواء فوق الأرض وليس مفتقراً إلى أن تحمله الأرض ، والسحاب أيضاً فوق الأرض وليس مفتقراً إلى أن تحمله ، والسموات فوق الأرض وليست مفتقرة إلى حمل الأرض لها ؛ فالعلى الأعلى رب كل شىء ومليكه إذا كان فوق جميع خلقه : كيف يجب أن يكون محتاجاً إلى خلقه أو عرشه ؟ أو كيف يستلزم علوه على خلقه هذا الافتقار وهو ليس بمستلزم فى المخلوقات ؟ وقد علم أن ما ثبت لمخلوق من الغنى عن غيره فالخالق سبحانه وتعالى أحق به وأولى .

وكذلك قوله : ﴿أَأَمِنتُم مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فإذَا هِيَ تَمُورُ﴾[120] من توهم أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله فى داخل السموات فهو جاهل ضال بالاتفاق ، وإن كنا إذا قلنا : إن الشمس والقمر فى السماء يقتضى ذلك ، فإن حرف (فى)[121] متعلق بما قبله وبما بعده ـــ فهو بحسب المضاف إليه .

---

(١١٩) سورة الذاريات الآية ٤٧ .

(١٢٠) سورة الملك الآية ١٦

(١٢١) حرف «فى» حرف جر له عشرة معان ذكرها ابن هشام فى المغنى (١٤٤/١)

ولهذا يفرق بين كون الشيء فى المكان ، وكون الجسم فى الحيز ، وكون العرض فى الجسم ، وكون الوجه فى المرآة ، وكون الكلام فى الورق ، فإن لكل نوع من هذه الأنواع خاصة يتميز بها عن غيره ، وإن كان حرف (فى) مستعملا فى ذلك .

فلو قال قائل : العرش فى السماء أو فى الأرض ؟ لقيل فى السماء ، ولو قيل : الجنة فى السماء أم فى الأرض ؟ لقيل الجنة فى السماء ؛ ولا يلزم من ذلك أن يكون العرش داخل السموات ، بل ولا الجنة .

فقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : «**إذَا سَأَلْتُم اللهَ الجَنَّةَ فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوسَ ، فَإنَّهُ أعْلَى الجَنَّةِ ، وأوسَطُ الجَنَّةِ ، وسَقْفُها عَرْشُ الرَّحْمَنِ**» فهذه الجنة سقفها الذى هو العرش فوق الأفلاك . مع أن الجنة فى السماء يراد به العلو ، سواء كان فوق الأفلاك أو تحتها ، قال تعالى : ﴿**فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السَّماءِ**﴾(١٢٢) وقال تعالى : ﴿**وأنْزَلنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً**﴾(١٢٣) .

ولما كان قد استقر فى نفوس المخاطبين أن الله هو العلى الأعلى ؛ وأنه فوق كل شيء كان المفهوم من قوله : إنه فى السماء أنه فى العلو ، وأنه فوق كل شيء .

وكذلك الجارية لما قال لها :أين الله ؟ قالت:فى السماء ، إنما أرادت العلو ، مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحلوله فيها ، وإذا قيل : العلو فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها ، فما فوقها كلها هو فى السماء ، ولا يقتضى هذا أن يكون هناك ظرف وجودى يحيط به ، إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله .

كما لو قيل : العرش فى السماء ، فإنه لا يقتضى أن يكون العرش فى شيء آخر موجود مخلوق ، وإن قدر أن السماء المراد بها الأفلاك: كان المراد أنه عليها ، كما قال : ﴿**ولأُصَلِّبَنَّكُمْ في جُذُوعِ النَّخلِ**﴾ وكما قال : ﴿**فَسيرُوا في الأرضِ**﴾(١٢٤) وكما قال : ﴿**فَسيحُوا في الأرضِ**﴾(١٢٥) ويقال : فلان فى الجبل ، وفى السطح ، وإن كان على أعلى شيء فيه .

---

(١٢٢) سورة الحج الآية (١٥) .

(١٢٣) سورة الفرقان الآية (٤٨) .

(١٢٤) سورة آل عمران الآية (١٣٧) .

(١٢٥) سورة التوبة الآية (٢) .

القاعـــدة الخامســـة

إنا نعلم لما أخبرنا به من وجه دون وجه .

فإن الله قال : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[١٢٦] وقال : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القَوْلَ﴾[١٢٧] وقال : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[١٢٨] وقال : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١٢٩] .

فأمر بتدبر الكتاب كله .

وقد قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْه آياتٌ مُحكمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِين في قُلوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ والرَّاسخونَ فى العِلْمِ يَقُولونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يذَّكَّرُ إِلاَّ أُولوا الأَلْبَابِ﴾ .

وجمهور سلف الأمة وخلفها على أن الوقف على قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تأْويلَه إلاَّ اللهُ﴾ وهذا هو المأثور عن أبى بن كعب ، وابن مسعود ، وابن عباس وغيرهم[١٣٠] .

وروى عن ابن عباس أنه قال : التفسير على أربعة أوجه ، تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، من ادعى علمه فهو كاذب .

---

(١٢٦) سورة النساء الآية (٨٢) .

(١٢٧) سورة المؤمنون الآية (٦٨) .

(١٢٨) سورة ص الآية (٢٩) .

(١٢٩) سورة محمد الآية (٢٤) .

(١٣٠) جاء فى تفسير فتح القدير (١/٣١٥) للشوكانى قال :وقد اختلف أهل العلم فى قوله «والراسخون فى العلم» هل هو كلام مقطوع عما قبله وأن الكلام تم عند قوله «إلا الله» هذا قول ابن عمر وابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وأبى الشعثاء وأبى نهيك وغيرهم وهو مذهب الكسائى والفراء والأخفش وأبى عبيد وحكاه ابن جرير الطبرى عن مالك واختاره وحكاه الخطابى عن ابن مسعود وأبىّ بن كعب قال : وإنما روى عن مجاهد أنه نسق الراسخين على ماقبله وزعم أنهم يعلمونه .

وقد روى عن مجاهد وطائفة : أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويله .وقد قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته ، أقفه عند كل آية وأسأله عن تفسيرها . ولا منافاة بين القولين عند التحقيق .

فإن لفظ (التأويل) قد صار بتعدد الاصطلاحات مستعملا فى ثلاثة معان :

(**أحدها**) : وهو اصطلاح كثير من المتأخرين من المتكلمين فى الفقه وأصوله ـــ أن التأويل هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح ؛ لدليل يقترن به ، وهذا هو الذى عناه أكثر من تكلم من المتأخرين فى تأويل نصوص الصفات ، وترك تأويلها ؛ وهل ذلك محمود أو مذموم ، أو حق أو باطل ؟

(**الثانى**) : أن التأويل بمعنى التفسير ، وهذا هو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن ، كما يقول ابن جرير ، وأمثاله ـــ من المصنفين فى التفسير ـــ واختلف علماء التأويل ، ومجاهد إمام المفسرين ؛ قال الثورى : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، وعلى تفسيره يعتمد الشافعى وأحمد والبخارى وغيرهما ، فإذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به معرفة تفسيره .

(**الثالث**) من معانى التأويل : هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام[١٣١] ، كما قال الله تعالى : ﴿**هل يَنظُرُونَ إلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ**﴾[١٣٢]

فتأويلُ ما فى القرآن من أخبار المعاد هو ما أخبر الله به فيه مما يكون : من القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار ونحو ذلك ، كما قال الله تعالى فى قصة يوسف لما سجد أبواه وإخوته ، قال : ﴿**يَا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُؤْيَاىَ مِنَ قَبل**﴾[١٣٣] فجعل عين ما وجد فى الخارج هو تأويل الرؤيا .

الثانى : هو تفسير الكلام ، وهو الكلام الذى يفسر به اللفظ حتى يفهم معناه ، أو تعرف علته أو دليله .

وهذا (التأويل الثالث) هو عين ما هو موجود فى الخارج ، ومنه قول عائشة : كان

(١٣١) ذكر معانى كثيرة للتأويل الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى فى «النوع السابع والسبعون» «فى معرفة تفسيره وتأويله وبيان شرفه والحاجة إليه» فى كتابه الاتقان (٢٢١/٢)

(١٣٢) سورة الأعراف الآية ٥٣

(١٣٣) سورة يوسف الآية ـــ ١٠٠

النبى ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : «**سبحانك ، اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى**» يتأول القرآن يعنى قوله : ﴿**فسبِّحْ بِحَمْدِ ربِّك واسْتَغْفِرهُ**﴾[١٣٤] .

وقول سفيان بن عيينة : السنة هى تأويل الأمر والنهى ، فإن نفس الفعل المأمور به : هو تأويل الأمر به ، ونفس الموجود المخبر عنه ، هو تأويل الخبر ، والكلام خبر وأمر .

ولهذا يقول أبو عبيد وغيره : الفقهاء أعلم بالتأويل من أهل اللغة ، كما ذكروا ذلك فى تفسير اشتمال الصماء ، لأن الفقهاء يعلمون تفسير ما أمر به ونهى عنه ؛ لعلمهم بمقاصد الرسول ﷺ ، كما يعلم أتباع بقراط وسيبويه ونحوهما من مقاصدهما ما لا يعلم بمجرد اللغة ؛ ولكن تأويل الأمر والنهى لابد من معرفته ، بخلاف تأويل الخبر .

إذا عرف ذلك : فتأويل ما أخبر الله تعالى به عن نفسه المقدسة المتصفة بما لها من حقائق الأسماء والصفات ، هو حقيقة لنفسه المقدسة ، المتصفة بما لها من حقائق الصفات ، وتأويل ما أخبر الله به تعالى من الوعد والوعيد ، هو نفس ما يكون من الوعد والوعيد .

ولهذا ما يجىء فى الحديث نعمل بمحكمه ونؤمن بمتشابهه ، لأن ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر ، فيه ألفاظ متشابهة يشبه معانيها ما نعلمه فى الدنيا ، كما أخبر أن فى الجنة لحماً ولبناً ، وعسلاً وخمراً ونحو ذلك ، وهذا يشبه ما فى الدنيا لفظاً ومعنى ؛ ولكن ليس هو مثله ولا حقيقته .

فأسماء الله تعالى وصفاته أولى ، وإن كان بينهما وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه أن لا يكون لأجلها الخالق مثل المخلوق ، ولا حقيقته كحقيقته .

والإخبار عن الغائب لا يفهم إن لم يعبر عنه بالأسماء المعلومة معانيها فى الشاهد ، ويعلم بها ما فى الغائب بواسطة العلم بما فى الشاهد ؛ مع العلم بالفارقُ المميز ، وأن ما أخبر الله به من الغيب أعظم مما يعلم فى الشاهد ، وفى الغائب ما لا عين رأت ولا أذن

---

(١٣٤) سورة النصر الآية (٣)

قال الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى فى الدر المنثور (٤٠٨/٣ ط المعرفة) أخرج عبد الرزاق وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة وذكر الحديث .

سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فنحن إذا أخبرنا الله بالغيب الذى اختص به : من الجنة والنار علمنا معنى ذلك وفهمنا ما أريد منا فهمه بذلك الخطاب وفسرنا ذلك .

وأما نفس الحقيقة المخبر عنها مثل التى لم تكن بعد ؛ وإنما تكون يوم القيامة فذلك من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله .

ولهذا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى : ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ قالوا : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وكذلك قال ربيعة شيخ مالك قبله : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومن الله البيان ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا الإيمان .

فبين أن الاستواء معلوم ، وأن كيفية ذلك مجهول ، ومثل هذا يوجد كثيراً فى كلام السلف والأئمة : ينفون علم العباد بكيفية صفات الله ، وأنه لا يعلم كيف الله إلا الله ، فلا يعلم ما هو إلا هو ، وقد قال النبى ﷺ : «**لَا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ**» وقال فى الحديث الآخر : «**اللَّهُمَّ إِنِى أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِى كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحداً مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِى عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ**» وهذا الحديث فى المسند وصحيح أبى حاتم ، وقد أخبر فيه أن لله من الأسماء به فى علم الغيب عنده .

فمعانى هذه الأسماء التى استأثر بها فى علم الغيب عنده لا يعلمها غيره .

والله سبحانه أخبرنا أنه عليم قدير ، سميع بصير ، غفور رحيم ؛ إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته . فنحن نفهم معنى ذلك ، ونميز بين العلم والقدرة ، وبين الرحمة والسمع والبصر ، ونعلم أن الأسماء كلها اتفقت فى دلالتها على ذات الله ، مع تنوع معانيها ، فهى متفقة متواطئة من حيث الذات ، متباينة من جهة الصفات .

وكذلك أسماء النبى ﷺ ، مثل محمد وأحمد والماحى والحاشر والعاقب .

وكذلك أسماء القرآن مثل القرآن والفرقان والهدى والنور والتنزيل والشفاء وغير ذلك(١٣٥) .

---

(١٣٥) ذكر الحافظ جلال الدين السيوطى فى الاتقان (١/٦٧) النوع (١٧) ماقاله أبو المعالى عزيزى بن عبد الملك المعروف بشيدلة بضم عين عزيزى فى [كتاب البرهان] اعلم أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين (٥٥) اسماً مثل ؛

ومثل هذه الأسماء تنازع الناس فيها ، هل هى من قبيل المترادفة ــ لاتحاد الذات ــ أو من قبيل المتباينة لتعدد الصفات ؟ كما إذا قيل : السيف والصارم والمهند ، وقصد بالصارم معنى الصرم ، وفى المهند النسبة إلى الهند ؛ والتحقيق أنها مترادفة فى الذات متباينة فى الصفات .

وبما يوضح هذا أن الله وصف القرآن كله بأنه محكم وبأنه متشابه ، وفى موضع آخر جعل منه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه ، فينبغى أن يعرف الإحكامُ والتشابهُ الذى يعمه ؛ والإحكام والتشابه الذى يخص بعضه ، قال الله تعالى : ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه ثمّ فُصِّلَتْ﴾[١٣٦] فأخبر أنه أحكم آياته كلها ، وقال تعالى : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مَثَانِىَ﴾[١٣٧] فأخبر أنه كله متشابه .

والحكم هو الفصل بين الشيئين ، فالحاكم يفصل بين الخصمين ، والحكم فصل بين المتشابهات ، علماً وعملا ، إذ ميز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، والنافع والضار ، وذلك يتضمن فعل النافع وترك الضار ، فيقال : حكمت السفيه وأحكمته ، إذا أخذت على يديه ، وحكمت الدابة وأحكمتها ، إذا جعلت لها حكمة ، وهو ما أحاط بالحنك من اللجام ، وإحكام الشيء إتقانه .

فإحكام الكلام إتقانه بتمييز الصدق من الكذب فى أخباره ، وتمييز الرشد من الغى فى أوامره ، والقرآن كله محكم بمعنى الإتقان ، فقد سماه الله حكيما بقوله : ﴿الر تِلْكَ آياتُ الكِتابِ الحَكِيمِ﴾[١٣٨] فالحكيم بمعنى الحاكم ؛ كما جعله يقص بقوله : ﴿إنَّ هَذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[١٣٩] . وجعله مفتياً فى قوله : ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فى الكِتابِ﴾[١٤٠] أى ما يتلى عليكم يفتيكم فيهن . وجعله هادياً ومبشراً فى قوله : ﴿إِنَّ هَـٰذَا القُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾[١٤١] .

القرآن ــ الكتاب والمبين والنور والفرقان وحبلا وبشرى وتنزيلا وبصائر وعدلا بشيرا ونذيرا .... إلخ

وذكر الآيات التى تشير إلى هذه المعانى لكننى قلت فى كتابى «الرحمة فى القرآن الكريم» أن معظم هذه صفات لشيء واحد هو القرآن الكريم .

(١٣٦) سورة هود الآية (١)

(١٣٧) سورة الزمر الآية (٢٣)

(١٣٨) سورة يونس الآية (١)

(١٣٩) سورة النمل الآية (٧٦) .

(١٤٠) سورة النساء الآية (١٢٧) .

(١٤١) سورة الإسراء الآية (٩)

وأما التشابه الذى يعمه فهو ضد الاختلاف المنفى عنه فى قوله : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[١٤٢] وهو الاختلاف المذكور فى قوله : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾[١٤٣] .

فالتشابه هنا : هو تماثل الكلام وتناسبه : بحيث يصدق بعضه بعضا ؛ فإذا أمر بأمر لم يأمر بنقيضه فى موضع آخر ؛ بل يأمر به أو بنظيره أو بملزوماته ؛ وإذا نهى عن شئ لم يأمر به فى موضع آخر ، بل ينهى عنه أو عن نظيره أو عن ملزوماته ، إذا لم يكن هناك نسخ .

وكذلك إذا أخبر بثبوت شئ لم يخبر بنقيض ذلك ، بل يخبر بثبوته أو بثبوت ملزوماته ، وإذا أخبر بنفى شئ لم يثبته ، بل ينفيه أو ينفى لوازمه ، بخلاف القول المختلف الذى ينقض بعضه بعضاً ، فيثبت الشئ تارة وينفيه أخرى ،أو يأمر به وينهى عنه فى وقت واحد ، ويفرق بين المتماثلين فيمدح أحدهما ويذم الآخر .

فالأقوال المختلفة هنا : هى المتضادة . والمتشابهة : هى المتوافقة .

وهذا التشابه يكون فى المعانى وإن اختلفت الألفاظ ، فإذا كانت المعانى يوافق بعضها بعضاً ، ويعضد بعضها بعضا ، ويناسب بعضها بعضاً ، ويشهد بعضها لبعض ، ويقتضى بعضها بعضاً : كان الكلام متشابهاً ؛ بخلاف الكلام المتناقض الذى يضاد بعضه بعضاً .

فهذا التشابه العام : لا ينافى الإحكام العام ؛ بل هو مصدق له ، فإن الكلام المحكم المتقن يصدق بعضه بعضاً لا يناقض بعضه بعضاً ، بخلاف الإحكام الخاص ؛ فإنه ضد التشابه الخاص ، والتشابه الخاص هو مشابهة الشئ لغيره من وجه مع مخالفته له من وجه آخر ، بحيث يشتبه على بعض الناس أنه هو أو مثله وليس كذلك .

والإحكام هو الفصل بينهما ، بحيث لا يشتبه أحدهما بالآخر ، وهذا التشابه إنما يكون بقدر مشترك بين الشيئين مع وجود الفاصل بينهما .

ثم من الناس من لا يهتدى للفصل بينهما فيكون مشتبهاً عليه ، ومنهم من يهتدى إلى ذلك ، فالتشابه الذى لا يتميز معه قد يكون من الأمور النسبية الإضافية ، بحيث يشتبه

---

(١٤٢) سورة النساء الآية (٨٢) .

(١٤٣) سورة الذاريات الآيتان (٨ ، ٩) .

على بعض الناس دون بعض ، ومثل هذا يعرف منه أهل العلم ما يزيل عنهم هذا الاشتباه ، كما إذا اشتبه على بعض الناس ما وعدوا به فى الآخرة بما يشهدونه فى الدنيا فظن أنه مثله ، فعلم العلماء أنه ليس مثله وإن كان مشبهاً له من بعض الوجوه .

ومن هذا الباب الشبه التى يضل بها بعض الناس ، وهى ما يشتبه فيها الحق والباطل ، حتى تشتبه على بعض الناس ؛ ومن أوتى العلم بالفصل بين هذا وهذا لم يشتبه عليه الحق بالباطل ، والقياس الفاسد إنما هو من باب الشبهات ، لأنه تشبيه للشىء فى بعض الأمور بما لا يشبه فيه .

فمن عرف الفصل بين الشيئين : اهتدى للفرق الذى يزول به الاشتباه والقياس الفاسد ؛ وما من شيئين إلا ويجتمعان فى شىء ويفترقان فى شىء ، فبينهما اشتباه من وجه وافتراق من وجه ، فلهذا كان ضلال بنى آدم من قبل التشابه ، والقياس الفاسد لا ينضبط كما قال الإمام أحمد : أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس ؛ فالتأويل فى الأدلة السمعية ، والقياس فى الأدلة العقلية ، وهو كما قال، والتأويل الخطأ إنما يكون فى الألفاظ المتشابهة ، والقياس الخطأ إنما يكون فى المعانى المتشابهة .

وقد وقع بنو آدم فى عامة ما يتناوله هذا الكلام من أنواع الضلالات ، حتى آل الأمر إلى من يدعى التحقيق والتوحيد والعرفان منهم إلى أن اشتبه عليهم وجود الرب بوجود كل موجود ، فظنوا أنه هو ، فجعلوا وجود المخلوقات عين وجود الخالق ، مع أنه لا شىء أبعد من عن مماثلة شىء ، وأن يكون إياه أو متحداً به ؛ أو حالاً فيه ، من الخالق مع المخلوق .

فمن اشتبه عليه وجود الخالق بوجود المخلوقات كلها ، حتى ظنوا وجودها وجوده ؛ فهم أعظم الناس ضلالا من جهة الاشتباه .

وذلك أن الموجودات تشترك فى مسمى الوجود ، فرأوا الوجود واحداً ولم يفرقوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع .

وآخرون توهموا أنه إذا قيل : الموجودات تشترك فى مسمى الوجود لزم التشبيه والتركيب ، فقالوا : لفظ الوجود مقول بالاشتراك اللفظى ، فخالفوا ما اتفق عليه العقلاء مع اختلاف أصنافهم ؛ من أن الوجود ينقسم إلى قديم ومحدث ، ونحو ذلك من أقسام الموجودات .

وطائفة ظنت أنه إذا كانت الموجودات تشترك فى مسمى الوجود لزم أن يكون فى الخارج عن الأذهان موجود مشترك فيه ، وزعموا أن فى الخارج عن الأذهان كليات مطلقة ، مثل وجود مطلق ، وحيوان مطلق ، وجسم مطلق ونحو ذلك ، فخالفوا الحس والعقل والشرع ، وجعلوا ما فى الأذهان ثابتاً فى الأعيان وهذا كله من نوع الاشتباه .

ومن هداه الله فرق بين الأمور وإن اشتركت من بعض الوجوه ، وعلم ما بينهما من الجمع والفرق ، والتشابه والاختلاف ؛ وهؤلاء لا يضلون بالمتشابه من الكلام ، لأنهم يجمعون بينه وبين المحكم الفارق الذى يبين ما بينهما من الفصل والافتراق .

وهذا كما أن لفظ (إنا) و (نحن) وغيرهما من صيغ الجمع يتكلم بها الواحد له شركاء فى الفعل ، ويتكلم بها الواحد العظيم الذى له صفات تقوم كل صفة مقام واحد ، وله أعوان تابعون له ؛ لا شركاء له . فإذا تمسك النصرانى بقوله تعالى : ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ**﴾(١٤٤) ونحوه على تعدد الآلهة ، كان المحكم كقوله تعالى : ﴿**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾(١٤٥) ونحو ذلك مما لا يحتمل إلا معنى واحداً يزيل ما هناك من الاشتباه ؛ وكان ما ذكره من صيغة الجمع مبيناً لما يستحقه من العظمة والأسماء والصفات وطاعة المخلوقات من الملائكة وغيرهم .

وأما حقيقة ما دل عليه ذلك من حقائق الأسماء والصفات ، وماله من الجنود الذين يستعملهم فى أفعاله ، فلا يعلمهم إلا هو ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**﴾(١٤٦) وهذا من تأويل المتشابه الذى لايعلمه إلا الله ، بخلاف الملك من البشر إذ قال : قد أمرنا لك بعطاء ، فقد علم أنه هو وأعوانه ، مثل كاتبه وحاجبه وخادمه ونحو ذلك أمروا به ، وقد يعلم ما صدر عنه ذلك الفعل من اعتقاداته وإراداته ونحو ذلك .

والله ـــ سبحانه وتعالى ـــ لا يعلم عباده الحقائق التى أخبر عنها من صفاته وصفات اليوم الآخر ، ولا يعلمون حقائق ما أراد بخلقه وأمره من الحكمة ولا حقائق ما صدرت عنه من المشيئة والقدرة .

---

(١٤٤) سورة الحجر الآية (٩) .

(١٤٥) سورة البقرة الآية (١٦٣) .

(١٤٦) سورة المدثر الآية (٣١) .

وبهذا يتبين أن التشابه يكون فى الألفاظ المتواطئة ، كما يكون فى الألفاظ المشتركة التى ليست بمتواطئة ، وإن زال الاشتباه بما يميز أحد النوعين : من إضافة أو تعريف ، كما إذا قيل : ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ﴾[147] فهناك قد خص هذا الماء بالجنة ، فظهر الفرق بينه وبين ماء الدنيا .

لكن حقيقة ما امتاز به ذلك الماء غير معلوم لنا ، وهو مع ما أعده الله لعباده الصالحين ـــ مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ـــ من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله .

وكذلك مدلول أسمائه وصفاته التى يختص بها ، التى هى حقيقة لا يعلمها إلا هو ؛ ولهذا كان الأئمة كالإمام أحمد وغيره ينكرون على الجهمية وأمثالهم ـــ من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ـــ تأويل ما تشابه عليهم من القرآن على غير تأويله ، كما قال أحمد : فى كتابه الذى صنفه فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله .

وإنما ذمهم لكونهم تأولوه على غير تأويله ، وذكر فى ذلك ما يشتبه عليهم معناه ، وإن كان لا يشتبه على غيرهم ، وذمهم على أنهم تأولوه على غير تأويله ، ولم ينف مطلق لفظ التأويل كما تقدم : من أن لفظ التأويل يراد به التفسير المبين لمراد الله به ، فذلك لا يعاب بل يحمد ، ويراد بالتأويل الحقيقة التى استأثر الله بعلمها ، فذاك لا يعلمه إلا هو ، وقد بسطنا هذا فى غير هذا الموضع .

ومن لم يعرف هذا : اضطربت أقواله ، مثل طائفة يقولون أن التأويل باطل ، وأنه يجب إجراء اللفظ على ظاهره ، ويحتجون بقوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ويحتجون بهذه الآية على إبطال التأويل ، وهذا تناقض منهم ؛ لأن هذه الآية تقتضى أن هناك تأويلا لا يعلمه إلا الله ، وهم ينفون التأويل مطلقاً .

وجهة الغلط أن التأويل الذى استأثر الله بعلمه هو الحقيقة التى لا يعلمها إلا هو .

وأما التأويل المذموم والباطل[148] : فهو تأويل أهل التحريف والبدع ، الذين يتأولونه

(١٤٧) سورة محمد الآية (١٥) .

(١٤٨) يقول ابن تيمية فى درء تعارض العقل مع النقل (٢٠١/١ القسم الأول) فالمتأول إن لم يكن مقصوده معرفة

على غير تأويله ، ويدعون صرف اللفظ عن مدلوله إلى غير مدلوله بغير دليل يوجب ذلك ، ويدعون أن فى ظاهره من المحذور ما هو نظير المحذور اللازم فيما أثبتوه بالعقل ، ويصرفونه إلى معان هى نظير المعانى التى نفوها عنه ، فيكون ما نفوه من جنس ما أثبتوه ، فإن كان الثابت حقاً ممكناً كان المنفى مثله ، وإن كان المنفى باطلا ممتنعاً كان الثابت مثله .

وهؤلاء الذين ينفون التأويل مطلقاً ، ويحتجون بقوله تعالى : ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ**﴾ قد يظنون أنا خوطبنا فى القرآن بما لا يفهمه أحد ؛ أو بما لا معنى له ، أو بما لا يفهم منه شيء .

وهذا مع أنه باطل فهو متناقض ، لأنا إذا لم نفهم منه شيئاً لم يجز لنا أن نقول له تأويل يخالف الظاهر ولا يوافقه ؛ لإمكان أن يكون له معنى صحيح ، وذلك المعنى الصحيح : لا يخالف الظاهر المعلوم لنا ، فإنه لا ظاهر له على قولهم فلا تكون دلالته على ذلك المعنى دلالة على خلاف الظاهر ، فلا يكون تأويلا .

ولا يجوز نفى دلالته على معان لا نعرفها على هذا التقدير .

فإن تلك المعانى التى دل عليها قد لا نكون عارفين بها ، ولأنا إذا لم نفهم اللفظ ومدلوله فلأن لا نعرف المعانى التى لم يدل عليها اللفظ أولى ؛ لأن إشعار اللفظ بما يراد به أقوى من إشعاره بما لا يراد به ؛ فإذا كان اللفظ لا إشعار له بمعنى من المعانى ولا يفهم منه معنى أصلا لم يكن مشعراً بما أريد به ، فلأن لا يكون مشعراً بما لم يرد به أولى .

فلا يجوز أن يقال : إن هذا اللفظ متأول ، بمعنى أنه مصروف عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح ، فضلا عن أن يقال : إن هذا التأويل لا يعلمه إلا الله .

اللهم إلا أن يراد بالتأويل ما يخالف ظاهره المختص بالخلق .

فلا ريب أن من أراد بالظاهر هذا لابد أن يكون له تأويل يخالف ظاهره . لكن إذا قال هؤلاء : إنه ليس لها تأويل يخالف الظاهر ، أو إنها تجرى على المعانى الظاهرة منها كانوا متناقضين .

مراد المتكلم كان تأويله للفظ بما يتحمله من حيث الجملة فى كلام من تكلم بمثله من العرب هو من باب التحريف والإلحاد لا من باب التفسير وبيان المراد .

وإن أرادوا بالظاهر هنا معنى ، وهناك معنى : فى سياق واحد من غير بيان كان تلبيساً .

وإن أرادوا بالظاهر مجرد اللفظ أى تجرى على مجرد اللفظ الذى يظهر من غير فهم لمعناه كان إبطالهم للتأويل أو إثباته تناقضاً ؛ لأن من أثبت تأويلا أو نفاه فقد فهم معنى من المعانى .

وبهذا التقسيم : يتبين تناقض كثير من الناس من نفاة الصفات ومثبتيها فى هذا الباب .

القاعـــدة الســـادسة

إنه لقائل أن يقول : لابد فى هذا الباب من ضابط ، يعرف به ما يجوز على الله مما لا يجوز فى النفى والإثبات ، إذ الاعتماد فى هذا الباب على مجرد نفى التشبيه ، أو مطلق الإثبات من غير تشبيه ليس بسديد ، وذلك أنه ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك وقدر مميز .

فالنافى إن اعتمد فيما ينفيه على أن هذا تشبيه قيل له : إن أردت أنه مماثل له من كل وجه فهذا باطل ؛ وإن أردت أنه مشابه له من وجه دون وجه أو مشارك له فى الاسم لزمك هذا فى سائر ما تثبته . وأنتم إنما أقمتم الدليل على إبطال التشبيه والتماثل الذى فسرتموه بأنه يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه ، ويجب له ما يجب له .

ومعلوم أن إثبات التشبيه بهذا التفسير مما لا يقوله عاقل يتصور ما يقول ؛ فإنه يعلم بضرورة العقل امتناعه ، ولا يلزم من نفى هذا نفى التشابه من بعض الوجوه ، كما فى الأسماء والصفات المتواطئة . ولكن من الناس من يجعل التشبيه مفسراً بمعنى من المعانى ، ثم إن كل من أثبت ذلك المعنى قالوا : أنه مشبه ، ومنازعهم يقول : ذلك المعنى ليس من التشبيه .

وقد يفرق بين لفظ التشبيه والتمثيل .

وذلك أن المعتزلة ونحوهم من نفاة الصفات يقولون : كل من أثبت لله صفة قديمة فهو مشبه ممثل ، فمن قال إن لله علماً قديماً أو قدرة قديمة كان عندهم مشبهاً ممثلا ، لأن القديم عند جمهورهم هو أخص وصف الإله ، فمن أثبت له صفة قديمة فقد أثبت لله مثلا قديماً ، ويسمونه ممثلا بهذا الاعتبار ، ومثبتة الصفات لا يوافقونهم على هذا بل يقولون : أخص وصفه ما لا يتصف به غيره مثل كونه رب العالمين ، وأنه بكل شىء عليم ، وأنه على كل شىء قدير ، وأنه إله واحد ، ونحو ذلك ؛ والصفة لا توصف بشىء من ذلك .

● ثم من هؤلاء الصفاتية من لا يقول فى الصفات أنها قديمة بل يقول : الرب بصفاته قديم .

● ومنهم من يقول : هو قديم وصفته قديمة ، ولا يقول : هو وصفاته قديمان .

● ومنهم من يقول : هووصفاتهقديمان ؛ ولكن يقول : ذلك لا يقتضى مشاركة الصفة له فى شيء من خصائصه ، فإن القدم ليس من خصائص الذات المجردة ، بل من خصائص الذات الموصوفة بصفات ، وإلا فالذات المجردة لا وجود لها عندهم ، فضلا عن أن تختص بالقدم .

وقد يقولون : الذات متصفة بالقدم ، والصفات متصفة بالقدم ، وليست الصفات إلهاً ولا ربا ، كما أن النبى محدث وصفاته محدثة ،وليست صفاته نبياً .

فهؤلاء إذا أطلقوا على الصفاتية اسم التشبيه والتمثيل : كان هذا بحسب اعتقادهم الذى ينازعهم فيه أولئك ، ثم يقول لهم أولئك : هب أن هذا المعنى قد يسمى فى اصطلاح بعض الناس تشبيها ، فهذا المعنى لم ينفه عقل ولا سمع ، وإنما الواجب نفى ما نفته الأدلة الشرعية والعقلية .

والقرآن قد نفى مسمى المثل والكفء والند ونحو ذلك .

ولكن يقولون الصفة فى لغة العرب ليست مثل الموصوف ، ولا كفؤه ، ولا نده ، فلا يدخل فى النص .

وأما العقل : فلم ينف مسمى التشبيه فى اصطلاح المعتزلة .

وكذلك أيضاً يقولون : إن الصفات لا تقوم إلا بجسم متحيز ، والأجسام متماثلة ، فلو قامت به الصفات للزم أن يكون مماثلا لسائر الأجسام ، وهذا هو التشبيه .

وكذلك يقول هذا كثير من الصفاتية ، الذين يثبتون الصفات وينفون علوه على العرش ، وقيام الأفعال الاختيارية به ونحو ذلك ، ويقولون : الصفات قد تقوم بما ليس بجسم ، وأما العلو على العالم فلا يصح إلا إذا كان جسما ، فلو أثبتنا علوه للزم أن يكون جسما وحينئذ فالأجسام متماثلة فيلزم التشبيه .

فلهذا تجد هؤلاء يسمون من أثبت العلو ونحوه مشبها ، ولا يسمون من أثبت السمع والبصر ، والكلام ونحوه مشبهاً ، كما يقول صاحب الإرشاد وأمثاله .

وكذلك يوافقهم على القول بتماثل الأجسام القاضى أبو يعلى وأمثاله من مثبتة الصفات والعلو ؛ لكن هؤلاء يجعلون العلو صفة خبرية ، كما هو أول قولى القاضى أبى يعلى ، فيكون الكلام فيه كالكلام فى الوجه .

وقد يقولون : إن ما يثبتونه لا ينافى الجسم ، كما يقولونه فى سائر الصفات . والعاقل إذا تأمل وجد الأمر فيما نفوه كالأمر فيما أثبتوه لا فرق .

وأصل كلام هؤلاء كلهم على أن إثبات الصفات مستلزم للتجسيم ، والأجسام متماثلة .

والمثبتون يجيبون عن هذا تارة بمنع المقدمة الأولى ، وتارة بمنع المقدمة الثانية ، وتارة بمنع كل من المقدمتين ، وتارة بالاستفصال .

ولا ريب أن قولهم بتماثل الاجسام قول إبطال ، سواء فسروا الجسم بما يشار إليه أو بالقائم بنفسه أو بالموجود ، أو بالمركب من الهيولى والصورة ونحو ذلك ، فأما إذا فسروه بالمركب من الجواهر المفردة ، وعلى أنها متماثلة فهذا يبنى على صحة ذلك ؛ وعلى إثبات الجوهر الفرد ، وعلى أنه تماثل ، وجمهور العقلاء يخالفونهم فى ذلك .

والمقصود هنا أنهم يطلقون التشبيه على ما يعتقدونه تجسيماً بناء على تماثل الأجسام ، والمثبتون ينازعونهم فى اعتقادهم ؛ كإطلاق الرافضة النصب على من تولى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ بناء على أن من أحبهما فقد أبغض علياً رضى الله عنه ؛ ومن أبغضه فهو ناصبى .

وأهل السنة ينازعونهم فى المقدمة الأولى ؛ ولهذا يقول هؤلاء : إن الشيئين لا يشتبهان من وجه ويختلفان من وجه ، وأكثر العقلاء على خلاف ذلك ، وقد بسطنا الكلام على هذا فى غير هذا الموضع ، وبينا فيه حجج من يقول بتماثل الأجسام ، وحجج من نفى ذلك ، وبينا فساد قول من يقول بتماثلها .

وأيضاً فالاعتماد بهذا الطريق على نفى التشبيه اعتماد باطل ، وذلك أنه إذا ثبت تماثل الأجسام ، فهم لا ينفون ذلك إلا بالحجة التى ينفون بها الجسم .

وإذا ثبت أن هذا يستلزم الجسم ، وثبت امتناع الجسم كان هذا وحده كافياً فى نفى ذلك ، لا يحتاج نفى ذلك إلى نفى مسمى التشبيه ، لكن نفى التجسيم يكون مبنياً

على نفى هذا التشبيه بأن يقال : لو ثبت له كذا وكذا لكان جسما ؛ ثم يقال : والأجسام متماثلة ، فيجب اشتراكها فيما يجب ويجوز ويمتنع ، وهذا ممتنع عليه .

لكن حينئذ يكون من سلك هذا المسلك معتمداً فى نفى التشبيه على نفى التجسيم ؛ فيكون أصل نفيه نفى الجسم ، وهذا مسلك آخر سنتكلم عليه إن شاء الله .

وإنما المقصود هنا : أن مجرد الاعتماد فى نفى ما ينفى على مجرد نفى التشبيه لا يفيد إذ ما من شيئين إلا يشتبهان من وجه ويفترقان من وجه ، بخلاف الاعتماد على نفى النقص والعيب ونحو ذلك ، مما هو سبحانه مقدس عنه ، فإن هذه طريقة صحيحة .

وكذلك إذا أثبت له صفات الكمال ونفى مماثلة غيره له فيها ، فإن هذا نفى المماثلة فيما هو مستحق له ، وهذا حقيقة التوحيد : وهو أن لا يشركه شيء من الأشياء فيما هو من خصائصه . وكل صفة من صفات الكمال فهو متصف بها على وجه لا يماثله فيه أحد ؛ ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها ما وصف به نفسه من الصفات ، ونفى مماثلته بشيء من المخلوقات .

فإن قيل : إن الشيء إذا شابه غيره من وجه جاز عليه ما يجوز عليه من ذلك الوجه ، ووجب له ما وجب له ، وامتنع عليه ما امتنع عليه .

قيل : هب أن الأمر كذلك ، ولكن إذا كان ذلك القدر المشترك لا يستلزم إثبات ما يمتنع على الرب سبحانه ، ولا نفى ما يستحقه لم يكن ممتنعاً كما إذا قيل : أنه موجود حى عليم سميع بصير ، وقد سمى بعض المخلوقات حياً سميعاً عليما بصيراً فإذا قيل : يلزم أنه يجوز عليه ما يجوز على ذلك من جهة كونه موجوداً حياً عليما سميعاً بصيراً . قيل : لازم هذا القدر المشترك ليس ممتنعاً على الرب تعالى ، فإن ذلك لا يقتضى حدوثاً ولا إمكاناً ، ولا نقصاً ولا شيئاً مما ينافى صفات الربوبية .

وذلك أن القدر المشترك هو مسمى الوجود أو الموجود ، أو الحياة أو الحى ، أو العلم أو العليم ، أو السمع أو البصر ، أو السميع أو البصير ، أو القدرة أو القدير ، والقدر المشترك مطلق كلى لا يختص بأحدهما دون الآخر ؛ فلم يقع بينهما اشتراك لا فيما يختص بالممكن المحدث ، ولا فيما يختص بالواجب القديم ، فإن ما يختص به أحدهما يمتنع اشتراكهما فيه .

فإذا كان القدر المشترك الذى اشتركا فيه صفة كمال ، كالوجود والحياة ، والعلم والقدرة ، ولم يكن فى ذلك شيء مما يدل على خصائص المخلوقين ، كما لا يدل على شيء من خصائص الخالق ، لم يكن فى إثبات هذا محذور أصلا ؛ بل إثبات هذا من لوازم الوجود ، فكل موجودين لابد بينهما من مثل هذا ، ومن نفى هذا لزمه تعطيل وجود كل موجود .

ولهذا لما اطلع الأئمة على أن هذا حقيقة قول الجهمية سموهم معطلة ، وكان جهم ينكر أن يسمى الله شيئاً ، وربما قالت الجهمية هو شيء لا كالأشياء ، فإذا نفى القدر المشترك مطلقاً لزم التعطيل العام .

والمعانى التى يوصف بها الرب تعالى كالحياة ، والعلم والقدرة ، بل الوجود والثبوت ، والحقيقة ونحو ذلك : تجب لوازمها ، فإن ثبوت الملزوم يقتضى ثبوت اللازم ، وخصائص المخلوق التى يجب تنزيه الرب عنها ليست من لوازم ذلك أصلا ، بل تلك من لوازم ما يختص بالمخلوق من وجود وحياة ، وعلم ونحو ذلك .

والله سبحانه منزه عن خصائص المخلوقين وملزومات خصائصهم .

وهذا الموضع من فهمه فهماً جيداً وتدبره زالت عنه عامة الشبهات ، وانكشف له غلط كثير من الأذكياء فى هذا المقام ، وقد بسط هذا فى مواضع كثيرة .

وبين فيها أن القدر المشترك الكلى لا يوجد فى الخارج إلا معيناً مقيداً ، وأن معنى اشتراك الموجودات فى أمر من الأمور هو تشابهها من ذلك الوجه ، وأن ذلك المعنى العام يطلق على هذا وهذا ؛ لأن الموجودات فى الخارج لا يشارك أحدها الآخر فى شيء موجود فيه ، بل كل موجود متميز عن غيره بذاته وصفاته وأفعاله .

ولما كان الأمر كذلك كان كثير من الناس متناقضاً فى هذا المقام ؛ فتارة يظن أن إثبات القدر المشترك يوجب التشبيه الباطل ، فيجعل ذلك له حجة فيما يظن نفيه من الصفات حذراً من ملزومات التشبيه ، وتارة يتفطن أنه لابد من إثبات هذا على تقدير فيجيب به فيما يثبته من الصفات لمن احتج به من النفاة .

ولكثرة الاشتباه فى هذا المقام : وقعت الشبهة فى أن وجود الرب هل هو عين ماهيته ، أو زائد على ماهيته ؟ وهل لفظ الوجود مقول بالاشتراك اللفظى أو التواطؤ أو

التشكيك ؟ كما وقع الاشتباه فى إثبات الأحوال ونفيها ، وفيه أن المعدوم هل هو شىء أم لا ؟ وفى وجود الموجودات هل هو زائد على ماهيتها أم لا ؟

وقد كثر من أئمة النظار الاضطراب والتناقض فى هذه المقامات ؛ فتارة يقول أحدهم القولين المتناقضين ، ويحكى عن الناس مقالات ما قالوها ؛ وتارة يبقى فى الشك والتحير .

وقد بسطنا من الكلام فى هذه المقامات ، وما وقع مع الاشتباه والغلط والحيرة فيها لأئمة الكلام والفلسفة ما لا تتسع له هذه الجمل المختصرة .

وبينا أن الصواب هو أن وجود كل شىء فى الخارج هو ماهيته الموجودة فى الخارج ؛ بخلاف الماهية التى فى الذهن ، فإنها مغايرة للموجود فى الخارج ؛ وأن لفظ الذات والشىء والماهية والحقيقة ونحو ذلك فهذه الألفاظ كلها متواطئة .

فإذا قيل : إنها مشككة لتفاضل معانيها ، فالمشكك نوع من المتواطىء العام ، الذى يراعى فيه دلالة اللفظ على القدر المشترك ، سواء كان المعنى متفاضلا فى موارده أو متماثلا .

وبينا أن المعدوم شىء أيضاً فى العلم والذهن لا فى الخارج ، فلا فرق بين الثبوت والوجود ، لكن الفرق ثابت بين الوجود العلمى والعينى ، مع أن ما فى العلم ليس هو الحقيقة الموجودة ، ولكن هو العلم التابع للعالم القائم به .

وكذلك الأحوال التى تتماثل فيها الموجودات وتختلف : لها وجود فى الأذهان ، وليس فى الأعيان إلا الأعيان الموجودة وصفاتها القائمة بها المعينة ، فتتشابه بذلك وتختلف به .

وأما هذه الجملة المختصرة فإن المقصود بها التنبيه على جمل مختصرة جامعة ، من فهمها علم قدر نفعها ، وانفتح له باب الهدى ، وإمكان إغلاق باب الضلال ؛ ثم بسطها وشرحها له مقام آخر ؛ إذ لكل مقام مقال .

والمقصود : هنا أن الاعتماد على مثل هذه الحجة فيما ينفى عن الرب وينزه عنه — كما يفعله كثير من المصنفين — خطأ لمن تدبر ذلك ، وهذا من طرق النفى الباطلة .

ما يَسلكه نفاة الصفات

وأفسد من ذلك : ما يسلكه نفاة الصفات ، أو بعضها إذا أرادوا أن ينزهوه عما يجب تنزيهه عنه ، مما هو من أعظم الكفر ، مثل أن يريدوا تنزيهه عن الحزن والبكاء ونحو ذلك ، ويريدون الرد على اليهود : الذين يقولون أنه بكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة ، والذين يقولون بإلهية بعض البشر وأنه الله .

فإن كثيراً من الناس يحتج على هؤلاء بنفى التجسيم والتحيز ونحو ذلك ، ويقولون لو اتصف بهذه النقائص والآفات لكان جسما أو متحيزاً وذلك ممتنع ، وبسلوكهم مثل هذه الطريق استظهر عليهم هؤلاء الملاحدة ، نفاة الأسماء والصفات ، فإن هذه الطريقة لا يحصل بها المقصود لوجوه :

(أحدها) أن وصف الله تعالى بهذه النقائص والآفات أظهر فساداً فى العقل والدين من نفى التحيز والتجسيم ؛ فإن هذا فيه من الاشتباه والنزاع والخفاء ما ليس فى ذلك ، وكفر صاحب ذلك معلوم بالضرورة من دين الإسلام ، والدليل معرف للمدلول ومبين له ؛ فلا يجوز أن يستدل على الأظهر الأبين بالأخفى ، كما لا يفعل مثل ذلك فى الحدود .

(الوجه الثانى) أن هؤلاء الذين يصفونه بهذه الصفات : يمكنهم أن يقولوا نحن لا نقول بالتجسيم والتحيز ، كما يقوله من يثبت الصفات وينفى التجسيم ، فيصير نزاعهم مثل نزاع مثبتة الكلام وصفات الكمال ، فيصير كلام من وصف الله بصفات الكمال وصفات النقص واحداً ، ويبقى رد النفاة على الطائفتين بطريق واحد ، وهذا فى غاية الفساد .

(الثالث) أن هؤلاء ينفون صفات الكمال بمثل هذه الطريقة ، واتصافه بصفات الكمال واجب ثابت بالعقل والسمع ، فيكون ذلك دليلا على فساد هذه الطريقة .

(الرابع) أن سالكى هذه الطريقة متناقضون ، فكل من أثبت شيئاً منهم ألزمه الآخر بما يوافقه فيه من الإثبات ، كما أن كل من نفى شيئاً منهم ألزمه الآخر بما يوافقه فيه من النفى .

فمثبتة الصفات ـــ كالحياة والعلم ، والقدرة والكلام ، والسمع والبصر ـــ إذا قالت لهم النفاة كالمعتزلة : هذا تجسيم ؛ لأن هذه الصفات أعراض والعرض لا يقوم إلا بالجسم ، أو لأنا لا نعرف موصوفاً بالصفات إلا جسما .

قالت لهم المثبتة : وأنتم قد قلتم أنه حى عليم قدير ، وقلتم : ليس بجسم ؛ وأنتم لا تعلمون موجوداً حياً عالماً قادراً إلا جسما ، فقد أثبتموه على خلاف ما علمتم ، فكذلك نحن ، وقالوا لهم : أنتم أثبتم حياً عالماً قادراً ؛ بلا حياة ولا علم ولا قدرة ، وهذا تناقض يعلم بضرورة العقل .

ثم هؤلاء المثبتون إذا قالوا لمن أثبت أنه يرضى ويغضب ، ويحب ويبغض ، أو من وصفه بالاستواء والنزول ، والإتيان والمجيء ، أو بالوجه واليد ونحو ذلك إذا قالوا : هذا يقتضى التجسيم ؛ لأنا لا نعرف ما يوصف بذلك إلا ما هو جسم .

قالت لهم المثبتة : فأنتم قد وصفتموه بالحياة والعلم والقدرة ، والسمع والبصر والكلام ، وهذا هكذا ؛ فإذا كان هذا لا يوصف به إلا الجسم فالآخر كذلك ، وإن أمكن أن يوصف بأحدهما ما ليس بجسم فالآخر كذلك ؛ فالتفريق بينهما تفريق بين المتماثلين .

ولهذا لما كان الرد على من وصف الله تعالى بالنقائص بهذا الطريق طريقاً فاسداً لم يسلكه أحد من السلف والأئمة ، فلم ينطق أحد منهم فى حق الله بالجسم لا نفياً ولا إثباتاً ، ولا بالجوهر والتحيز ونحو ذلك ، لأنها عبارات مجملة لا تحق حقاً ولا تبطل باطلا .

ولهذا لم يذكر الله فى كتابه فيما أنكره على اليهود وغيرهم من الكفار ما هو من هذا النوع ؛ بل هذا هو من الكلام المبتدع ، الذى أنكره السلف والأئمة .

من أثبت بعض الصّفات أثبت الباقى

وأما فى طرق الإثبات : فمعلوم أيضاً أن المثبت لا يكفى فى إثباته مجرد نفى التشبيه ، إذ لو كفى فى إثباته مجرد نفى التشبيه لجاز أن يوصف سبحانه من الأعضاء والأفعال ، بما لا يكاد يحصى مما هو ممتنع عليه — مع نفى التشبيه ، وأن يوصف بالنقائص التى لا تجوز عليه مع نفى التشبيه .

كما لو وصفه مفتر عليه بالبكاء والحزن ، والجوع والعطش ، مع نفى التشبيه . وكما لو قال المفترى : يأكل لا كأكل العباد ، ويشرب لا كشربهم ، ويبكى ويحزن لا كبكائهم ولا حزنهم ؛ كما يقال يضحك لا كضحكهم ، ويفرح لا كفرحهم ، ويتكلم لا ككلامهم . ولجاز أن يقال : له أعضاء كثيرة لا كأعضائهم ، كما قيل : له وجه لا كوجوههم ، ويدان لا كأيديهم . حتى يذكر المعدة والأمعاء والذكر ، وغير ذلك مما يتعالى الله عز وجل عنه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فإنه يقال لمن نفى ذلك مع إثبات الصفات الخبرية وغيرها من الصفات : ما الفرق بين هذا وما أثبته إذا نفيت التشبيه وجعلت مجرد نفى التشبيه كافياً فى الإثبات ، فلابد من إثبات فرق فى نفس الأمر .

فإن قال : العمدة فى الفرق هو السمع فما جاء به السمع أثبته دون ما لم يجىء به السمع .

قيل له أولا : السمع هو خبر الصادق عما هو الأمر عليه فى نفسه ، فما أخبر به الصادق فهو حق من نفى أو إثبات ؛ والخبر دليل على المخبر عنه ، والدليل لا ينعكس ؛ فلا يلزم من عدمه عدم المدلول عليه ، فما لم يرد به السمع يجوز أن يكون ثابتاً فى نفس الأمر ، وإن لم يرد به السمع ؛ إذا لم يكن نفاه .

ومعلوم أن السمع لم ينف هذه الأمور بأسمائها الخاصة ، فلابد من ذكر ما ينفيها من السمع ، وإلا فلا يجوز حينئذ نفيها كما لا يجوز إثباتها .

وأيضاً : فلابد فى نفس الأمر من فرق بين ما يثبت له وينفى ، فإن الامور المتماثلة فى

الجواز ، والوجوب ، والامتناع : يمتنع اختصاص بعضها دون بعض ، فى الجواز والوجوب والامتناع ، فلابد من اختصاص المنفى عن المثبت بما يخصه بالنفى ، ولابد من اختصاص الثابت عن المنفى بما يخصه بالثبوت .

وقد يعبر عن ذلك بأن يقال : لابد من أمر يوجب نفى ما يجب نفيه عن الله ، كما أنه لابد من أمر يثبت له ما هو ثابت ، وإن كان السمع كافياً كان مخبراً عما هو الأمر عليه فى نفسه ، فما الفرق فى نفس الامر بين هذا وهذا ؟

فيقال : كلما نفى صفات الكمال الثابتة لله فهو منزه عنه ، فإن ثبوت أحد الضدين يستلزم نفى الآخر ، فإذا علم أنه موجود واجب الوجود بنفسه ، وأنه قديم واجب القدم علم امتناع العدم والحدوث عليه ، وعلم أنه غنى عما سواه .

فالمفتقر إلى ما سواه فى بعض ما يحتاج إليه لنفسه : ليس هو موجوداً بنفسه ، بل بنفسه وبذلك الآخر الذى أعطاه ما تحتاج إليه نفسه فلا يوجد إلا به .

وهو سبحانه غنى عن كل ما سواه فكل ما نافى غناه فهو منزه عنه ؛ وهو سبحانه قدير قوى فكل ما نافى قدرته وقوته فهو منزه عنه ، وهو سبحانه حى قيوم ، فكل ما نافى حياته وقيوميته فهو منزه عنه .

وبالجملة فالسمع قد أثبت له من الأسماء الحسنى وصفات الكمال ما قد ورد ، فكل ما ضاد ذلك فالسمع ينفيه كما ينفى عنه المثل والكفؤ فإن إثبات الشىء نفى لضده ، ولما يستلزم ضده ، والعقل يعرف نفى ذلك كما يعرف إثبات ضده ، فإثبات أحد الضدين نفى للآخر ولما يستلزمه .

فطرق العلم بنفى ما ينزه عنه الرب متسعة ، لا يحتاج فيها إلى الاقتصار على مجرد نفى التشبيه والتجسيم ، كما فعله أهل القصور والتقصير : الذين تناقضوا فى ذلك ، وفرقوا بين المتماثلين ، حتى أن كل من أثبت شيئاً احتج عليه من نفاه بأنه يستلزم التشبيه .

وكذلك احتج القرامطة على نفى جميع الأمور ، حتى نفوا النفى ،فقالوا : لا يقال لا موجود ولا ليس بموجود ، ولا حى ولا ليس بحى ؛ لأن ذلك تشبيه بالموجود أو المعدوم فلزم نفى النقيضين : وهو أظهر الأشياء امتناعاً .

ثم إن هؤلاء يلزمهم من تشبيهه بالمعدومات ، والممتنعات ، والجمادات : أعظم مما فروا منه من التشبيه بالأحياء الكاملين ، فطرق تنزيهه وتقديسه عما هو منزه عنه متسعة لا تحتاج إلى هذا .

وقد تقدم أن ما ينفى عنه ــ سبحانه ــ النفى المتضمن للإثبات ؛ إذ مجرد النفى لا مدح فيه ولا كمال ، فإن المعدوم يوصف بالنفى ، والمعدوم لا يشبه الموجودات ، وليس هذا مدحاً له ، لأن مشابهة الناقص فى صفات النقص نقص مطلقاً كما أن مماثلة المخلوق فى شيء من الصفات : تمثيل وتشبيه ينزه عنه الرب تبارك وتعالى .

والنقص ضد الكمال ؛ وذلك مثل أنه قد علم أنه حى والموت ضد ذلك فهو منزه عنه ؛ وكذلك النوم والسنة ضد كمال الحياة ، فإن النوم أخو الموت ، وكذلك اللغوب نقص فى القدرة والقوة ، والأكل والشرب ونحو ذلك من الأمور فيه افتقار إلى موجود غيره ، كما أن الاستعانة بالغير والاعتضاد به ونحو ذلك تتضمن الافتقار إليه والاحتياج إليه .

وكل من يحتاج إلى من يحمله أو يعينه على قيام ذاته وأفعاله فهو مفتقر إليه ليس مستغنياً عنه بنفسه فكيف من يأكل ويشرب ، والآكل والشارب أجوف ، والمصمت الصمد أكمل من الآكل والشارب .

ولهذا كانت الملائكة صمداً لا تأكل ولا تشرب ، وقد تقدم أن كل كمال ثبت لمخلوق فالخالق أولى به ، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بتنزيهه عن ذلك ، والسمع قد نفى ذلك فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ والصمد الذى لا جوف له ، ولا يأكل ولا يشرب ، وهذه السورة هى نسب الرحمن ، أو هى الأصل فى هذا الباب .

وقال فى حق المسيح وأمه : ﴿ما الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾[١٤٩] فجعل ذلك دليلاً على نفى الألوهية ، فدل ذلك على تنزيهه عن ذلك بطريق الأولى والأحرى .

والكبد والطحال ونحو ذلك : هى أعضاء الأكل والشرب ، فالغنى المنزه عن ذلك : منزه عن آلات ذلك ، بخلاف اليد فإنها للعمل والفعل ، وهو سبحانه موصوف بالعمل

---

(١٤٩) سورة المائدة ــ (الآية ٧٥) .

والفعل ؛ وذاك من صفات الكمال ؛ فمن يقدر أن يفعل أكمل ممن لا يقدر على الفعل .

وهو سبحانه منزه عن الصاحبة والولد ، وعن آلات ذلك وأسبابه . وكذلك البكاء والحزن : هو مستلزم الضعف والعجز ، الذى ينزه عنه سبحانه ؛ بخلاف الفرح والغضب : فإنه من صفات الكمال ، فكما يوصف بالقدرة دون العجز ، وبالعلم دون الجهل ، وبالحياة دون الموت ، وبالسمع دون الصمم ، وبالبصر دون العمى ، وبالكلام دون البكم : فكذلك يوصف بالفرح دون الحزن ، وبالضحك دون البكاء ونحو ذلك .

وأيضاً فقد ثبت بالعقل ما أثبته السمع ، من أنه سبحانه لا كفؤ له ولا سمى له وليس كمثله شيء ، فلا يجوز أن تكون حقيقته كحقيقة شيء من المخلوقات ، ولا حقيقة شيء من صفاته كحقيقة شيء من صفات المخلوقات ، فيعلم قطعاً أنه ليس من جنس المخلوقات ، لا الملائكة ولا السموت ، ولا الكواكب ولا الهواء ، ولا الماء ولا الأرض ، ولا الآدميين ولا أبدانهم ولا أنفسهم ، ولا غير ذلك ، بل يعلم أن حقيقته عن مماثلات شيء من الموجودات أبعد من سائر الحقائق ، وأن مماثلته لشيء منها أبعد من مماثلة حقيقة شيء من المخلوقات لحقيقة مخلوق آخر .

فإن الحقيقتين إذا تماثلتا : جاز على كل واحدة ما يجوز على الأخرى ، ووجب لها ما وجب لها . فيلزم أن يجوز على الخالق القديم الواجب بنفسه ما يجوز على المحدث المخلوق ، من العدم والحاجة ، وأن يثبت لهذا ما يثبت لذلك من الوجوب والفناء ، فيكون الشيء الواحد واجباً بنفسه غير واجب بنفسه ، موجوداً معدوماً ، وذلك جمع بين النقيضين .

وهذا مما يعلم به بطلان قول المشبهة الذين يقولون : بصر كبصرى ، أو يد كيدى ونحو ذلك ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

وليس المقصود هنا استيفاء ما يثبت له ولا ما ينزه عنه ، واستيفاء طرق ذلك ؛ لأن هذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

وإنما المقصود هنا التنبيه على جوامع ذلك وطرقه .

وما سكت عنه السمع نفياً وإثباتاً ، ولم يكن فى العقل ما يثبته ولا ينفيه سكتنا عنه ، فلا نثبته ولا ننفيه .

فنثبت ما علمنا ثبوته ، وننفى ما علمنا نفيه ، ونسكت عما لا نعلم نفيه ولا إثباته والله أعلم .

القاعـــدة الســـابعة

أن يقال : إن كثيراً مما دل عليه «السمع» يعلم «بالعقل» أيضاً ، والقرآن يبين ما يستدل به العقل ، ويرشد إليه وينبه عليه ؛ كما ذكر الله ذلك فى غير موضع .

فإنه سبحانه وتعالى : بين من الآيات الدالة عليه ، وعلى وحدانيته ، وقدرته ، وعلمه ، وغير ذلك : ما أرشد العباد إليه ودلهم عليه ؛ كما بين أيضاً ما دل على نبوة أنبيائه ؛ وما دل على المعاد وإمكانه .

فهذه المطالب هى شرعية من جهتين :

من جهة أن الشارع أخبر بها .

ومن جهة أنه بين الأدلة العقلية التى يستدل بها عليها . والأمثال المضروبة فى القرآن ، هى «أقيسة عقلية» وقد بسط فى غير هذا الموضع ، وهى أيضاً عقلية من جهة أنها تعلم بالعقل أيضاً .

وكثير من أهل الكلام يسمى هذه «الأصول العقلية» لاعتقاده أنها لا تعلم إلا بالعقل فقط . فإن السمع هو مجرد إخبار الصادق وخبر الصادق ، الذى هو النبى لا يعلم صدقه إلا بعد العلم بهذه الأصول بالعقل .

ثم إنهم قد يتنازعون فى الأصول التى تتوقف إثبات النبوة عليها .

فطائفة تزعم : أن تحسين العقل وتقبيحه داخل فى هذه الأصول ، وأنه لا يمكن إثبات النبوة بدون ذلك ، ويجعلون التكذيب بالقدر مما ينفيه العقل .

و طائفة تزعم أن حدوث العالم من هذه الأصول ، وأن العلم بالصانع لا يمكن إلا بإثبات حدوثه ، وإثبات حدوثه لا يمكن إلا بحدوث الأجسام ، وحدوثها يعلم إما بحدوث الصفات ، وإما بحدوث الأفعال القائمة بها ، فيجعلون نفى أفعال الرب ، ونفى صفاته من الأصول التى لا يمكن إثبات النبوة إلا بها .

ثم هؤلاء لا يقبلون الاستدلال بالكتاب والسنة على نقيض قولهم ، لظنهم أن العقل عارض السمع ـــ وهو أصله ـــ فيجب تقديمه عليه . والسمع : إما أن يؤوّل ، وإما أن يفوض ، وهم أيضاً عند التحقيق لا يقبلون الاستدلال بالكتاب والسنة على وفق قولهم لما تقدم .

وهؤلاء يضلون من وجوه :

منها : ظنهم أن السمع بطريق الخبر تارة ، وليس الأمر كذلك ، بل القرآن بين من الدلائل العقلية ـــ التى تعلم بها المطالب الدينية ـــ ما لا يوجد مثله فى كلام أئمة النظر ، فتكون هذه المطالب : شرعية عقلية .

ومنها : ظنهم أن الرسول لا يعلم صدقه إلا بالطريق المعينة التى سلكوها ، وهم مخطئون قطعاً فى انحصار طريق تصديقه فيما ذكروه ، فإن طرق العلم بصدق الرسول كثيرة ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

و منها : ظنهم أن تلك الطريق التى سلكوها صحيحة ، وقد تكون باطلة .

ومنها : ظنهم أن ماعارضوا به السمع معلوم بالعقل ، ويكونون غالطين فى ذلك ؛ فإنه إذا وزن بالميزان الصحيح وجد ما يعارض الكتاب والسنة ، من المجهولات ؛ لا من المعقولات . وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن من صفات الله تعالى ما قد يعلم بالعقل ، كما يعلم أنه عالم ، وأنه قادر ، وأنه حى ؛ كما أرشد إلى ذلك قوله : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[150] .

وقد اتفق النظار من مثبتة الصفات : على أنه يعلم بالعقل (عند المحققين) أنه حى ؛ عليم ؛ قدير ؛ وكذلك السمع ؛ والبصر ، والكلام : يثبت بالعقل عند المحققين منهم ، بل وكذلك الحب ، والرضا ، والغضب . يمكن إثباته بالعقل . وكذلك علوه على المخلوقات ومباينته لها مما يعلم بالعقل ، كما أثبتته بذلك الأئمة : مثل أحمد بن حنبل ، وغيره .

ومثل : عبد العال المكى ، وعبد الله بن سعيد بن كلاب[151] ؛ بل وكذلك إمكان الرؤية : يثبت بالعقل ، لكن منهم من أثبتها بأن كل موجود تصح رؤيته .

ومنهم من أثبتها بأن كل قائم بنفسه يمكن رؤيته . وهذه الطريق أصح من تلك . وقد يمكن إثبات الرؤية ، بغير هذين الطريقين ، بتقسيم دائر بين النفى والإثبات ، كما

---

(١٥٠) سورة الملك (الآية ١٤) .

(١٥١) جاء فى مقالات الإسلاميين (٢٤٩/١) تحت عنوان شرح قول عبد الله بن كلاب فى الأسماء والصفات قال عبد الله بن كلاب : « لم يزل الله عالما حياً سميعاً بصيرا عزيزا عظيماً جليلا متكبراً جباراً كريماً جواداً واحداً صمداً فرداً باقيـاً أوّلاً رباً مريداً كارهاً راضيـاً عمن يعلم أنه يموت مؤمنا وإن كان أكثر عمره كافراً ... » وانظر بقية آرائه .

يقال : إن الرؤية لا تتوقف إلا على أمور وجودية ، فإن ما لا يتوقف إلا على أمور وجودية يكون الموجود الواجب القديم : أحق به من الممكن المحدث .

والكلام على هذه الأمور مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن من الطرق التى يسلكها الأئمة ومن اتبعهم من نظار السنة فى هذا الباب : أنه لو لم يكن موصوفاً بإحدى الصفتين المتقابلتين : للزم اتصافه بالأخرى ؛ فلو لم يوصف بالحياة لوصف بالموت ؛ ولو لم يوصف بالقدرة لوصف بالعجز ؛ ولو لم يوصف بالسمع والبصر والكلام لوصف بالصمم والخرس والبكم .

وطرد ذلك أنه لو لم يوصف بأنه مباين للعالم لكان داخلا فيه . فسلب إحدى الصفتين المتقابلتين عنه يستلزم ثبوت الأخرى ، وتلك صفة نقص ينزه عنها الكامل من المخلوقات ، فتنزيه الخالق عنها أولى .

وهذه الطريق غير قولنا أن هذه صفات كمال يتصف بها المخلوق ؛ فالخالق أولى . فإن طريق إثبات صفات الكمال بأنفسها مغاير لطريق إثباتها بنفى ما يناقضها .

وقد اعترض طائفة من النفاة على هذه الطريق باعتراض مشهور ؛ لبَّسوا به على الناس ؛ حتى صار كثير من أهل الإثبات يظن صحته ويضعف الإثبات به ، مثل ما فعل من فعل ذلك من النظار ، حتى الآمدى أمسى(١٥٢) مع أنه أصل قول القرامطة الباطنية ، وأمثالهم من الجهمية . فقالوا : القول بأنه لو لم يكن متصفا بهذه الصفات ؛ كالسمع والبصر والكلام ، مع كونه حياً : لكان متصفا بما يقابلها .

فالتحقيق فيه متوقف على بيان حقيقة (المتقابلين) . وبيان أقسامهما . فنقول أما المتقابلان فلا يجتمعان فى شىء واحد من جهة واحدة ، وهو إما ألا يصح اجتماعهما فى الصدق ولا فى الكذب : أو يصح ذلك فى أحد الطرفين ؛ ولأنهما متقابلان بالسلب والإيجاب ، وهو تقابل التناقض ؛ والتناقض هو اختلاف القضيتين بالسلب والإيجاب على وجه لا يجتمعان فى الصدق ولا فى الكذب لذاتيهما ؛ كقولنا زيد حيوان ، زيد ليس بحيوان .

ومن خاصة استحالة اجتماع طرفيه فى الصدق والكذب : أنه لا واسطة بين الطرفين ، ولا استحالة لأحد الطرفين من جهة واحدة ، ولا يصح اجتماعهما فى الصدق

---

(١٥٢) عبارة غامضة لاأعرف لها توجيهاً

ولا فى الكذب ؛ إذ كون الموجود واجباً بنفسه وممكنا بنفسه : لا يجتمعان ولا يرتفعان .

فإذا جعلتم هذا التقسيم : وهما «النقيضان ما لا يجتمعان ولا يرتفعان» فهذان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، وليس هما السلب والإيجاب ، فلا يصح حصر النقيضين ـــ اللذين لا يجتمعان ولا يرتفعان ـــ فى السلب والإيجاب .

وحينئذ فقد ثبت وصفان ـــ شيئان ـــ لا يجتمعان ولا يرتفعان ؛ وهو خارج عن الأقسام الأربعة على هذا .

فمن جعل الموت معنى وجوديا : فقد يقول إن كون الشيء لا يخلو من الحياة والموت هو من هذا الباب ؛ وكذلك العلم والجهل ، والصمم والبكم ونحو ذلك .

الوجه الثانى : أن يقال : هذا التقسيم يتداخل ؛ فإن العدم والملكة : يدخل فى السلب والإيجاب وغايته أنه نوع منه . والمتضايفان يدخلان فى المتضادين ، إنما هما نوع منه . فإن قال : أعنى بالسلب والإيجاب : فلا يدخل فى العدم والملكة ـــ وهو أن يسلب عن الشيء ما ليس بقابل له ـــ ولهذا جعل من خواصه أنه لا استحالة لأحد طرفيه . إلى آخره .

قيل له : عن هذا جوابان :

أحدهما : أن غاية هذا أن السلب ينقسم إلى نوعين ، أحدهما : سلب ما يمكن اتصاف الشيء به .

والثانى : سلب ما لا يمكن اتصافه به .

فيقال : الأول إثبات ما يمكن اتصافه ولا يجب .

والثانى : إثبات ما يجب اتصافه به ؛ فيكون المراد به سلب ممتنع . وإثبات الواجب ؛ كقولنا زيد حيوان فإن هذا إثبات واجب ، وزيد ليس بحجر ، فإن هذا سلب ممتنع .

وعلى هذا التقدير فالممكنات التى تقبل الوجود والعدم ـــ كقولنا المثلث إما موجود وإما معدوم ـــ يكون من قسم العدم والملكة ، وليس كذلك . فإن ذلك القسم يخلو فيه الموصوف الواحد عن المتقابلين جميعاً ، ولا يخلو شيء من الممكنات عن الوجود والعدم .

وأيضاً فإنه على هذا التقدير ـــ فصفات الرب كلها واجبة له ـــ فإذا قيل إما أن يكون حياً أو عليما ، أو سميعاً أو بصيراً ، أو متكلما ؛ أو لا يكون : كان مثل قولنا : إما أن يكون موجوداً ؛ وإما أن لا يكون . وهذا متقابل تقابل السلب والإيجاب ، فيكون الآخر مثله . وبهذا يحصل المقصود .

فإن قيل : هذا لا يصح حتى يعلم إمكان قبوله لهذه الصفات : قيل له هذا إنما اشتركا فيما أمكن أن يثبت له ويزول كالحيوان ؛ فأما الرب تعالى : فإنه بتقدير ثبوتها له فهى واجبة ضرورة ؛ فإنه لا يمكن اتصافه بها وبعدمها ، باتفاق العقلاء . فإن ذلك يوجب أن يكون تارة حياً ، وتارة ميتاً ، وتارة أصم ، وتارة سميعاً ، وهذا يوجب اتصافه بالنقائص ؛ وذلك منتف قطعاً ؛ بخلاف من نفاها وقال : إن نفيها ليس بنقص لظنه أنه لا يقبل الاتصاف بها .

فإن من قال هذا لا يمكنه أن يقول : أنه مع إمكان الاتصاف بها لا يكون نفيها نقصاً ، فإن فساد هذا معلوم بالضرورة .

وقيل له أيضاً : أنت فى تقابل السلب والإيجاب ، إن اشترطت العلم بإمكان الطرفين : لم يصح أن تقول واجب الوجود ؛ إما موجود وإما معدوم، والممتنع الوجود اما موجود وإما معدوم ؛ لأن أحد الطرفين هنا معلوم الوجود . والآخر معلوم الامتناع .

وإن اشترطت العلم بإمكان أحدهما صح أن تقول إما أن يكون حياً ، وإما ألا يكون ؛ وإما أن يكون سميعاً بصيراً وإما أن لا يكون ؛ لأن النفى إن كان ممكناً صح التقسيم ، وإن كان ممتنعاً ؛ كان الإثبات واجباً ، وحصل المقصود .

فإن قيل : هذا يفيد أن هذا التأويل يقابل السلب والإيجاب ، ونحن نسلم ذلك كما ذكر فى الاعتراض ؛ لكن غايته : أنه إما سميع وإما ليس بسميع ، وإما بصير وإما ليس ببصير ؛ والمنازع يختار النفى .

فيقال له : على هذا التقدير : فالمثبت واجب ؛ والمسلوب ممتنع . فإما أن تكون هذه الصفات واجبة له ، وإما أن تكون ممتنعة عليه ، والقول بالامتناع لا وجه له ؛ إذ لا دليل عليه بوجه .

بل قد يقال : نحن نعلم بالاضطرار بطلان الامتناع ؛ فإنه لا يمكن أن يستدل على امتناع إلا بما يستدل به على إبطال أصل الصفات ؛ وقد علم فساد ذلك .

وحينئذ فيجب القول بوجوب هذه الصفات له .

واعلم أن هذا يمكن أن يجعل طريقة مستقلة فى إثبات صفات الكمال له ، فإنها إما واجبة له وإما ممتنعة عنه ، والثانى باطل ، فتعين الأول ؛ لأن كونه قابلا لها خالياً عنها يقتضى أن يكون ممكناً ، وذلك ممتنع فى حقه ، وهذه طريقة معروفة لمن سلكها من النظار .

الجواب الثانى أن يقال : فعلى هذا إذا قلنا زيد إما عاقل وإما غير عاقل ؛ وإما عالم واما ليس بعالم ، وإما حى وإما غير حى ، وإما ناطق وإما غير ناطق . وأمثال ذلك بما فيه سلب الصفة عن محل قابل لها ، لم يكن هذا داخلا فى قسم تقابل السلب والإيجاب .

ومعلوم أن هذا خلاف المعلوم بالضرورة ، وخلاف اتفاق العقلاء ، وخلاف ما ذكروه فى المنطق وغيره . ومعلوم أن مثل هذه القضايا تتناقض بالسلب والإيجاب ، على وجه يلزم من صدق إحداهما كذب الأخرى ، فلا يجتمعان فى الصدق والكذب ، فهذه شروط التناقض موجودة فيها .

وغاية فرقهم أن يقولوا إذا قلنا : هو إما بصير ، وإما ليس ببصير : كان إيجاباً وسلباً ، وإذا قلنا : إما بصير ؛ وإما أعمى : كان ملكة وعدما ، وهذه منازعة لفظية ، وإلا فالمعنى فى الموضعين سواء .

فعلم أن ذلك نوع من تقابل السلب والإيجاب ، وهذا يبطل قولهم فى حد ذلك التقابل : أنه لا استحالة لأحد الطرفين إلى الآخر ، فإن الإستحالة هنا ممكنة كإمكانها إذا عبر بلفظ العمى .

الوجه الثالث أن يقال : التقسيم الحاصر أن يقال : المتقابلان إما أن يختلفا بالسلب والإيجاب ، وإما أن لا يختلفا بذلك ، بل يكونان إيجابيين أو سلبيين .

فالأول هو النقيضان .

والثانى إما أن يمكن خلو المحل عنهما ، وإما أن لا يمكن . والأول : هما الضدان كالسواد والبياض ، والثانى : هما فى معنى النقيضين وإن كانا ثبوتيين ، كالوجوب

والإمكان ، والحدوث والقدم ، والقيام بالنفس والقيام بالغير ، والمباينة والمجانبة ، ونحو ذلك .

ومعلوم أن الحياة والموت ، والصمم والبكم ، والسمع : ليس مما إذا خلا الموصوف عنهما وصف بوصف ثالث بينهما ، كالحمرة بين السواد والبياض ، فعلم أن الموصوف لا يخلو عن أحدهما ، فإذا انتفى تعين الآخر .

الوجه الرابع : المحل الذى لا يقبل الاتصاف بالحياة والعلم ، والقدرة والكلام ونحوها : أنقص من المحل الذى يقبل ذلك ويخلو عنها ، ولهذا كان الحجر ونحوه أنقص من الحى الأعمى .

وحينئذ فإذا كان البارى منزهاً عن نفى هذه الصفات ؛ مع قبوله لها فتنزيهه عن امتناع قبوله لها أولى وأحرى ، إذ بتقدير قبوله لها يمتنع منع المتقابلين واتصافه بالنقائص ممتنع ، فيجب اتصافه بصفات الكمال ، وبتقدير عدم قبوله لا يمكن اتصافه : لا بصفات الكمال ولا بصفات النقص ، وهذا أشد امتناعاً فثبت أن اتصافه بذلك ممكن ، وأنه واجب له وهو المطلوب . وهذا فى غاية الحسن .

الوجه الخامس : أن يقال : أنتم جعلتم تقابل العدم والملكة فيما يمكن اتصافه بثبوت ، فإذا عنيتم بالإمكان الإمكان الخارجى — هو أن يعلم ثبوت ذلك فى الخارج — كان هذا باطلا لوجهين :

أحدهما : أنه يلزمكم أن تكون الجمادات لا توصف بأنها لا حية ولا ميتة ولا ناطقة ولا صامتة ، وهو قولكم — لكن هذا اصطلاح محض — وألا تصفوا هذه الجمادات بالموت والصمت . وقد جاء القرآن بذلك . قال تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**﴾[١٥٣] . فهذا فى «الأصنام» وهى من الجمادات وقد وصفت بالموت ، والعرب تقسم الارض إلى الحيوان والموتان .

قال أهل اللغة : الموتان بالتحريك خلاف الحيوان ، يقال : اشتر الموتان ولا تشتر

(١٥٣) سورة النحل الآية (٢٠، ٢١) .

الحيوان ، أى اشترالأرض والدور ؛ ولا تشتر الرقيق والدواب ؛ وقالوا أيضاً : الموات ما لا روح فيه .

فإن قيل : فهذا إنما يسمى مواتاً باعتبار قبوله «للحياة» التى هى إحياء الأرض : قيل وهذا يقتضى أن الحياة أعم من حياة الحيوان ، وأن الجماد يوصف بالحياة ، إذا كان قابلا للزرع والعمارة ؛ والخرس ضد النطق ، والعرب تقول : «لبن أخرس» أى خاثر لا صوت له فى الإناء ، «وسحابة خرساء» ليس فيها رعد ولا برق ، و «علم أخرس» إذا لم يسمع له فى الجبل صوت صدى . ويقال : «كتيبة خرساء» قال أبو عبيدة : هى التى صمتت من كثرة الدروع ليس لها قعاقع .

وأبلغ من ذلك الصمت والسكوت ؛ فإنه يوصف به القادر على النطق ، إذا تركه ؛ بخلاف الخرس فإنه عجز عن النطق . ومع هذا فالعرب تقول : «ما له صامت ولا ناطق» فالصامت الذهب والفضة ، والناطق الإبل والغنم ، فالصامت من اللبن الخاثر ، والصموت الدرع التى صمت إذا لم يسمع لها صوت .

ويقولون : دابة عجماء وخرساء لما لا تنطق ، ولا يمكن منها النطق فى العادة ومنه قول النبى ﷺ : «**العَجْمَاءُ جُبَارٌ**» وكذلك فى «العمياء» تقول العرب : عمى الموج يعمى عماً إذا رمى القذف والزبد ؛ و «الأعميان» السيل ، والجمل الهائج . وعمى عليه الأمر إذا التبس ، ومنه قوله تعالى : ﴿**فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ**﴾ .

وهذه الأمثلة قد يقال فى بعضها إنه عدم ما يقبل المحل الاتصاف به كالصوت ؛ ولكن فيها ما لا يقبل كموت الأصنام .

الثانى : أن الجامدات يمكن اتصافها بذلك ، فإن الله سبحانه قادر أن يخلق فى الجمادات حياة ، كما جعل عصى موسى حية تبتلع الحبال والعصى ــ وإذا كان فى إمكان العادات : كان ذلك مما قد علم بالتواتر ــ وأنتم أيضاً قائلون به فى مواضع كثيرة ، وإذا كان الجمادات يمكن اتصافها بالحياة وتوابع الحياة ثبت أن جميع الموجودات يمكن اتصافها بذلك ، فيكون الخالق أولى بهذا الإمكان . وإن عنيتم الإمكان الذهنى ــ وهو عدم العلم بالامتناع ــ فهذا حاصل فى حق الله ، فإنه لا يعلم امتناع اتصافه بالسمع والبصر والكلام .

الوجه السادس : أن يقال : هب أنه لابد من العلم بالإمكان الخارجى ، فإمكان الوصف للشئ يعلم تارة بوجوده له ، أو بوجوده لنظيره ، أو بوجوده لما هو الشئ أولى بذلك منه .

ومعلوم أن الحياة والعلم ، والقدرة والسمع ، والبصر والكلام : ثابت للموجودات المخلوقة ، وممكن لها . فإمكانها للخالق تعالى أولى وأحرى ؛ فإنها صفات كمال . وهو قابل للاتصاف بالصفات ؛ وإذا كانت ممكنة فى حقه فلو لم يتصف بها لا تصف بأضدادها .

الوجه السابع : أن يقال : مجرد سلب هذه الصفات نقص لذاته سواء سميت عمى ، وصمما ، وبكما ، أو لم تسم . والعلم بذلك ضرورى ، فأما إذا قدرنا موجودين أحدهما يسمع ، ويبصر ، ويتكلم ، والآخر ليس كذلك : كان الأول أكمل من الثانى .

ولهذا عاب الله سبحانه من عبد ما تنتفى فيه هذه الصفات ؛ فقال تعالى عن إبراهيم الخليل : ﴿**لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ ، وَلَا يُبْصِرُ ، وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا**﴾(١٥٤) وقال أيضاً فى قصته : ﴿**فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ**﴾(١٥٥) وقال تعالى عنه : ﴿**هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّون * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُم تَعْبُدُونَ * وَآبَاؤُكُم الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ**﴾(١٥٦) .

وكذلك فى قصة موسى فى العجل : ﴿**أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ**﴾(١٥٧) . وقال تعالى : ﴿**وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاَهُ ، أَيْنَمَا يُوَجِّهه لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾(١٥٨) .

فقابل بين الأبكم العاجز ، وبين الآمر بالعدل : الذى هو على صراط مستقيم .

---

(١٥٤) سورة مريم الآية (٤٢) .

(١٥٥) سورة الأنبياء الآية (٦٣) .

(١٥٦) سورة الشعراء الآيات (٧٢ : ٧٧) .

(١٥٧) سورة الأعراف الآية (١٤٨) .

(١٥٨) سورة النحل الآية (٧٦) .

التوحيد فى العبادات

وأما الأصل الثانى (وهو التوحيد فى العبادات) المتضمن للإيمان بالشرع والقدر جميعاً .

فنقول : لابد من الإيمان بخلق الله وأمره ، فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد علم ما سيكون قبل أن يكون ، وقدر المقادير وكتبها حيث شاء ، كما قال تعالى : ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ والأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**﴾(١٥٩) .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : «**إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبلَ أن يَخْلُقَ السَّمَوات والأَرْض بخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**» .

ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له ، كما خلق الجن والإنس لعبادته ، وبذلك أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له ، وذلك يتضمن كمال طاعته ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**﴾(١٦٠) .

وقد قال تعالى : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ**﴾(١٦١) وقال تعالى : ﴿**إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ، ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنوبَكُمْ**﴾(١٦٢) وقال تعالى : ﴿**واسأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلهَةً يُعْبَدُونَ**﴾(١٦٣) ﴿**وما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسُولٍ إلا نُوحِى إِلَيْهِ أنَّه لَا إِلَهَ إلاَّ أَنا فَاعْبُدُونِ**﴾(١٦٤) .

وقال تعالى : ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ، والَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، وَما وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفرقُوا فِيهَ كَبُرَ عَلَىٰ**

---

(١٥٩) سورة الحج الآية (٧٠) .
(١٦٠) سورة النساء الآية (٨٠) .
(١٦١) سورة النساء الآية (٦٤) .
(١٦٢) سورة آل عمران الآية (٣١) .
(١٦٣) سورة الزخرف الآية (٤٥) .
(١٦٤) سورة الأنبياء الآية (٢٥) .

﴿الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيهِ﴾[١٦٥] وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فاتَّقُونِ﴾[١٦٦] فأمر الرسل بإقامة الدين وأن لا يتفرقوا فيه .

ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « **إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد ، والأنبياء إخوة لعلات ، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا ؛ إنه ليس بيني وبينه نبى** » .

وهذا الدين هو دين الإسلام ، الذى لا يقبل الله ديناً غيره ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام ، قال الله تعالى عن نوح ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾[١٦٧] إلى قوله : ﴿وأُمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١٦٨] .

وقال عن إبراهيم : ﴿ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[١٦٩] إلى قوله : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّه أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٧٠] إلى قوله : ﴿فلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[١٧١] .

وقال عن موسى : ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾[١٧٢] وقال فى خبر المسيح : ﴿وإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[١٧٣] .

وقال فيمن تقدم من الأنبياء : ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾[١٧٤] وقال عن بلقيس أنها قالت : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وأَسْلَمْتُ مع سُلَيْمانَ للهِ رَبِّ العالمين﴾[١٧٥] .

فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده ؛ فمن استسلم له ولغيره كان مشركا ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته ، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر ،

---

(١٦٥) سورة الشورى الآية (١٣) .
(١٦٦) سورة المؤمنون الآيتان (٥١ ، ٥٢) .
(١٦٧) سورة يونس الآية (٧١) .
(١٦٨) سورة يونس الآية (٧٢) .
(١٦٩) سورة البقرة الآيات (١٣٠ ، ١٣١) .
(١٧٠) سورة البقرة الآية (١٣١) .
(١٧١) سورة البقرة الآية (١٣٢) .
(١٧٢) سورة يونس الآية (٨٤) .
(١٧٣) سورة المائدة الآية (١١١) .
(١٧٤) سورة المائدة الآية (٤٤) .
(١٧٥) سورة النمل الآية (٤٤) .

والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده ، وطاعته وحده .

فهذا دين الإسلام الذى لا يقبل الله غيره ؛ وذلك إنما يكون بأن يطاع كل وقت ، بفعل ما أمر به فى ذلك الوقت ؛ فإذا أمر فى أول الأمر باستقبال الصخرة ، ثم أمرنا ثانياً باستقبال الكعبة : كان كل من الفعلين حين أمر به داخلا فى الإسلام .

فالدين هو الطاعة والعبادة له فى الفعلين ؛ وإنما تنوع بعض صور الفعل وهو وجه المصلى ، فكذلك الرسل دينهم واحد وإن تنوعت الشرعة والمنهاج ،والوجهة والمنسك ؛ فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحداً ، كما لم يمنع ذلك فى شريعة الرسول الواحد .

والله تعالى جعل من دين الرسل : أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به ، وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به ، قال الله تعالى : ﴿وإذْ أخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لما آتيتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أأقْرَرْتُمْ وأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إصرى قالوا أقْررنا قالَ فاشْهَدُوا وأَنا مَعَكُمْ مِّنَ الشَّاهِدين﴾(١٧٦) .

قال ابن عباس : لم يبعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه ، وقال تعالى : ﴿وأنْزَلْنَا إلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ ، ومُهَيْمِنًا عَلَيْه ، فاحكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم عَمَّا جاءَكَ مِنَ الحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(١٧٧) .

وجعل الإيمان متلازما ، وكفر من قال : أنه آمن ببعض وكفر ببعض قال الله تعالى : ﴿إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ باللهِ ورُسُلِهِ ، ويُرِيدُونَ أنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ ورُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ ونَكْفُرُ بِبَعْضٍ ويُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُولئكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا﴾(١٧٨) وقال تعالى : ﴿أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وتكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إلاّ خِزْيٌ فى الحياةِ الدُّنيا ويَوْمَ القِيامةِ يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ العَذَابِ﴾(١٧٩) إلى قوله : ﴿تَعْمَلُونَ﴾ .

---

(١٧٦) سورة آل عمران الآية (٨١) .
(١٧٧) سورة المائدة الآية (٤٨) .
(١٧٨) سورة النساء الآيتان (١٥٠ ، ١٥١)
(١٧٩) سورة البقرة الآية (٨٥) .

وقد قال لنا : ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلى إبراهيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسَحقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِهِم لا نُفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحنُ لَهُ مُسلِمُونَ . فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وإنْ تَوَلَّوا فإنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾(١٨٠) .

فأمرنا أن نقول : آمنا بهذا كله ، ونحن له مسلمون ، فمن بلغته رسالة محمد ﷺ فلم يقر بما جاء به لم يكن مسلماً ، ولا مؤمنا ؛ بل يكون كافراً وإن زعم أنه مسلم أو مؤمن .

كما ذكروا أنه لما أنزل الله تعالى : ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُو فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ**﴾(١٨١) قالت اليهود والنَّصارى : فنحن مسلمون : فأنزل الله : ﴿**ولله عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنْ استطاعَ إليهِ سَبيلاً**﴾(١٨٢) فقالوا : لا نحج فقال تعالى : ﴿**وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنيٌّ عَنِ العَالَمِينَ**﴾(١٨٣) .

فإن الاستسلام لا يتم إلا بالقرار بماله على عباده من حج البيت ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وإيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وصَوْمِ رَمَضَانَ وَحَجِّ البَيْتِ**» .

ولهذا لما وقف النبي ﷺ بعرفة أنزل الله تعالى : ﴿**اليَوْمَ أَكمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وأَتمَمْتُ عَليكُمْ نِعمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ ، دِينًا**﴾(١٨٤) .

وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى ، هل هم مسلمون أم لا ؟ وهو نزاع لفظي ، فإن الإسلام الخاص الذي بعث الله به محمداً ﷺ ، المتضمن لشريعة القرآن : ليس عليه إلا أمة محمد ﷺ ، اليوم عند الاطلاق يتناول هذا ، وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبياً فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء .

ورأس الإسلام مطلقاً شهادة أن لا إله إلا الله ، وبها بعث جميع الرسل ، كما قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمةٍ رَسُولاً أَنِ اعبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾(١٨٥) وقال

(١٨٠) سورة البقرة الآيتان (١٣٦ ، ١٣٧) .
(١٨١) سورة آل عمران الآية (٨٥) .
(١٨٢) سورة آل عمران الآية (٩٧) .
(١٨٣) سورة آل عمران الآية (٩٧) .
(١٨٤) سورة المائدة الآية (٣) .
(١٨٥) سورة النحل الآية (٣٦) .

تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رَسُولٍ نُوحِي إِلَيهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[186] وقال عن الخليل : ﴿وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَومِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرجِعُونَ﴾[187] وقال تعالى عنه : ﴿أَفرأَيتُم مَا كُنتُمْ تَعبُدُونَ * أَنتُمْ وَآباءُكُم الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدوٌّ لِي إِلاَّ ربَّ العَالَمِينَ﴾[188] وقال تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبرَاهِيمَ والَّذِين مَعَه إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُم وَمِمَّا تَعبدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفرنَا بِكُم وَبَدَا بَيْنَنا وَبينكُمُ العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ أَبدًا حَتَّى تُؤمِنُوا باللهِ﴾[189] وقال ﴿واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحمنِ آلهَةً يُعبدُونَ﴾[190] .

وذكر عن رسله : كنوح ، وهود ، وصالح ، وغيرهم أنهم قالوا لقومهم : ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[191] وقال عن أهل الكهف : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُم هُدًى * وَرَبطْنَا عَلَى قُلُوبِهم إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ والأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِه إِلَهًا لَقدْ قُلنَا إِذاً شَطَطا﴾[192] إلى قوله : ﴿فَمَنْ أَظلَمَ مِمَّنَ افترَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾[193] .

وقد قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِه وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[194] ذكر ذلك فى موضعين من كتابه .

وقد بين فى كتابه الشرك بالملائكة ، والشرك بالأنبياء . والشرك بالكواكب ، والشرك بالاصنام ــ وأصل الشرك الشرك بالشيطان ــ فقال عن النصارى : ﴿اتَّخذُوا أَحْبَارَهمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ والمَسِيحَ بنَ مَرْيَمَ ، وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهًا وَاحدًا لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[195] وقال تعالى : ﴿وإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابنَ مرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يكونُ لِي أَنْ أَقولَ مَا لَيْسَ لِي بِحقٍّ ، إِنْ كُنتُ قُلتُه فَقَد عَلِمْتَهُ تَعلمُ مَا فِي نَفْسي

---

(١٨٦) سورة الأنبياء الآية (٢٥) .

(١٨٧) سورة الزخرف الآيات (٢٦ : ٢٨) .

(١٨٨) سورة الشعراء الآيات (٧٥ : ٧٧) .

(١٨٩) سورة الممتحنة الآية (٤) .

(١٩٠) سورة الزخرف الآية (٤٥)

(١٩١) سورة الأعراف الآية (٥٩) .

(١٩٢) سورة الكهف الآيات (١٣ : ١٥) .

(١٩٣) سورة الكهف الآية (١٥) .

(١٩٤) سورة النساء الآية (٤٨) .

(١٩٥) سورة التوبة الآية (٣١) .

وَلَا أعلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُم ﴾[196] وقال تعالى : ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ والحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ**﴾[197] إلى قوله : ﴿**وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الملائِكَةَ وَالنَّبِيينَ أَرْبَابًا أَيَأمرَكُم بِالكُفرِ بَعدَ إِذْ أنتم مُسلمون**﴾[198] فبين إن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر .

ومعلوم أن أحدا من الخلق لم يزعم أن الأنبياء ، والأحبار ، والرهبان ، والمسيح بن مريم ، شاركوا الله فى خلق السموات والأرض .

بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان فى الصفات والأفعال .

بل ولا أثبت أحد من بنى آدم إلها مساوياً لله فى جميع صفاته .

بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس شريكه مثله بل عامتهم يقرون أن الشريك مملوك له سواء كان ملكا أو نبياً أو كوكباً أو صنما كما كان مشركو العرب يقولون فى تلبيتهم : «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك» فأَهَلَّ رسول الله ﷺ بالتوحيد وقال : «**لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك**» .

وقد ذكر أرباب المقالات : ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين ، فى الملل والنحل ، والآراء والديانات ، فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له فى خلق جميع المخلوقات ، ولا مماثل له فى جميع الصفات ؛ بل من أعظم ما نقلوا فى ذلك قول الثنوية الذين يقولون بالأصلين «النور» و «الظلمة» ، وأن النور خلق الخير ، والظلمة خلقت الشر .

ثم ذكروا لهم فى الظلمة قولين :

أحدهما : أنها محدثة ، فتكون من جملة المخلوقات له .

والثانى : أنها قديمة ، لكنها لم تفعل إلا الشر ، فكانت ناقصة فى ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور .

---

(١٩٦) سورة المائدة الآيتان (١١٦ ، ١١٧) .

(١٩٧) سورة آل عمران الآية (٧٩) .

(١٩٨) سورة آل عمران الآية (٨٠) .

وقد أخبر سبحانه عن المشركين من إقرارهم بأن الله خالق المخلوقات ما بينه فى كتا.
فقال : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، قُلْ أفرأيتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ أَرَادَنِى اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُونَ﴾[199] . وقال تعالى : ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إنْ كُنتم تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله ﴿فَأَنَّى تُسْحَرونَ﴾[200] إلى قوله : ﴿ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[201] ، وقال : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلاَّ وهُم مُّشْرِكُونَ﴾[202] .

وبهذا وغيره : يعرف ما وقع من الغلط فى مسمى التوحيد ، فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد فى كتب الكلام والنظر : غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع .

فيقولون : هو واحد فى ذاته لا قسيم له ، وواحد فى صفاته لا شبيه له ، وواحد فى أفعاله لا شريك له .

وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث ، وهو «توحيد الأفعال» وهو أن خالق العالم واحد ، وهم يحتجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها ، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب ، وأن هذا هو معنى قولنا لا إله إلا الله ، حتى قد يجعلون معنى الإلهية القدرة على الاختراع .

ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ أولا : لم يكونوا يخالفونه فى هذا ، بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء[203] ، حتى أنهم كانوا يقرون بالقدر أيضاً ، وهم مع هذا مشركون .

فقد تبين أن ليس فى العالم من ينازع فى أصل هذا الشرك ؛ ولكن غاية ما يقال : إن من الناس من جعل بعض الموجودات خلقاً لغير الله ، كالقدرية وغيرهم ؛ لكن هؤلاء

---

(١٩٩) سورة الزمر الآية (٣٨) .
(٢٠٠) سورة المؤمنون الآيات (٨٤ : ٨٩) .
(٢٠١) سورة المؤمنون الآية (٩١) .
(٢٠٢) سورة يوسف الآية (١٠٦) .
(٢٠٣) والقرآن نفسه يقول حاكياً عنهم «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (الزمر – ٣)

يقرون بأن الله خالق العباد وخالق قدرتهم ، وإن قالوا : أنهم خلقوا أفعالهم .

وكذلك أهل الفلسفة والطبع والنجوم ، الذين يجعلون أن بعض المخلوقات مبدعة لبعض الأمور ، هم مع الإقرار بالصانع يجعلون هذه الفاعلات مصنوعة مخلوقة ، لا يقولون أنها غنية عن الخالق مشاركة له فى الخلق ، فأما من أنكر الصانع فذاك جاحد معطل للصانع ، كالقول الذى أظهر فرعون .

والكلام الآن مع المشركين بالله ، المقرين بوجوده ، فإن هذا التوحيد الذى قرروه لا ينازعهم فيه هؤلاء المشركون ، بل يقرون به مع أنهم مشركون ، كما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع ، وكما علم بالاضطرار من دين الإسلام .

وكذلك «النوع الثانى» ـــ وهو قولهم : لا شبيه له فى صفاته ـــ فإنه ليس فى الأمم من أثبت قديماً مماثلا له فى ذاته سواء قال أنه يشاركه . أو قال : أنه لا فعل له ؛ بل من شبه به شيئاً من مخلوقاته فإنما يشبه به فى بعض الأمور .

وقد علم بالعقل امتناع أن يكون له مثل فى المخلوقات يشاركه فيما يجب أو يجوز أو يمتنع عليه ؛ فإن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين كما تقدم .

وعلم أيضاً بالعقل أن كل موجودين قائمين بأنفسهما فلابد بينهما من قدر مشترك كاتفاقهما فى مسمى الوجود ، والقيام بالنفس ، والذات ونحو ذلك، فإن نفى ذلك يقتضى التعطيل المحض ، وأنه لابد من إثبات خصائص الربوبية ، وقد تقدم الكلام على ذلك .

ثم إن **الجهمية** من المعتزلة وغيرهم أدرجوا نفى الصفات فى مسمى التوحيد ، فصار من قال : إن لله علماً أو قدرة ، أو أنه يرى فى الآخرة ، أو أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق يقولون : أنه مشبه ليس بموحد .

وزاد عليهم غلاة الفلاسفة والقرامطة ، فنفوا أسماءه الحسنى ، وقالوا : من قال إن الله عليم قدير ، عزيز حكيم : فهو مشبه ليس بموحد .

وزاد عليهم غلاة الغلاة ، وقالوا: لا يوصف بالنفى ولا الإثبات ؛ لأن فى كل منهما تشبيهاً له ، وهؤلاء كلهم وقعوا من جنس التشبيه فيما هو شر مما فروا منه ، فإنهم شبهوه بالممتنعات ، والمعدومات ، والجمادات ، فراراً من تشبيههم ـــ بزعمهم ـــ له بالأحياء .

ومعلوم أن هذه الصفات الثابتة لله لا تثبت له على حد ما يثبت لمخلوق أصلا ، وهو سبحانه وتعالى ليس كمثله شئ لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، فلا فرق بين إثبات الذات وإثبات الصفات ؛ فإذا لم يكن فى إثبات الذات إثبات مماثلة للذوات : لم يكن فى إثبات الصفات إثبات مماثلة له فى ذلك ، فصار هؤلاء الجهمية المعطلة يجعلون هذا توحيداً ؛ ويجعلون مقابل ذلك التشبيه ويسمون نفوسهم الموحدين .

وكذلك «**النوع الثالث**» وهو قولهم : هو واحد لا قسيم له فى ذاته ، أو لا جزء له ، أو لا بعض له ؛ لفظ مجمل ، فإن الله سبحانه أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ؛ فيمتنع عليه أن يتفرق ، أو يتجزأ أو يكون قد ركب من أجزاء ، لكنهم يدرجون فى هذا اللفظ نفى علوه على عرشه ، ومباينته لخلقه ، وامتيازه عنهم ، ونحو ذلك من المعانى المستلزمة لنفيه وتعطيله ، ويجعلون ذلك من التوحيد .

فقد تبين أن ما يسمونه توحيداً : فيه ما هو حق ، وفيه ما هو باطل ، ولو كان جميعه حقاً ؛ فإن المشركين إذا أقروا بذلك كله لم يخرجوا من الشرك ، الذى وصفهم به فى القرآن وقاتلهم عليه الرسول ﷺ ؛ بل لابد أن يعترفوا أنه لا إله إلا الله .

وليس المراد (بالإله) هو القادر على الاختراع ، كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين ، حيث ظن أن الإلهية هى القدرة على الاختراع دون غيره ، وأن من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا هو .

فإن المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون كما تقدم بيانه ، بل الإله الحق هو الذى يستحق بأن يعبد ، فهو إله بمعنى مألوه ؛ لا إله بمعنى آله ؛ والتوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له ، والإشراك أن يجعل مع الله إلّهاً آخر

وإذا تبين أن غاية ما يقرره هؤلاء النظار أهل الإثبات للقدر ، المنتسبون إلى السُّنَّة إنما هو توحيد الربوبية ، وان الله رب كل شئ ، ومع هذا فالمشركون كانوا مقرين بذلك مع أنهم مشركون .

وكذلك طوائف من أهل التصوف ، والمنتسبين إلى المعرفة ، والتحقيق والتوحيد : غاية ما عندهم من التوحيد هو شهود هذا التوحيد ، وأن يشهد أن الله رب كل شئ ، ومليكه وخالقه ،ولاسيما إذا غاب العارف بموجوده عن وجوده ، وبمشهوده عن شهوده

وبمعروفه عن معرفته ، ودخل فى فناء توحيد الربوبية بحيث يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل ، فهذا عندهم هو الغاية التى لا غاية وراءها .

ومعلوم أن هذا هو تحقيق ما أقر به المشركون من التوحيد ، ولا يصير الرجل بمجرد هذا التوحيد مسلماً ، فضلا عن أن يكون ولياً لله ، أو من سادات الأولياء .

وطائفة من أهل التصوف والمعرفة : يقررون هذا التوحيد مع إثبات الصفات ، فيفنون فى توحيد الربوبية مع إثبات الخالق للعالم ، المباين لمخلوقاته ، وآخرون يضمون هذا إلى نفى الصفات ، فيدخلون فى التعطيل مع هذا ، وهذا شر من حال كثير من المشركين .

وكان جهم بن صفوان[٢٠٤] ينفى الصفات ويقول بالجبر ، فهذا تحقيق قول جهم ، لكنه إذا أثبت الأمر والنهى ، والثواب والعقاب: فارق المشركين من هذا الوجه ، لكن جهـ ' من اتبعه يقول بالإرجاء ؛ فيضعف الأمر والنهى ، والثواب والعقاب عنده .

..ـ ـية والضرارية وغيرهم : يقربون من جهم فى مسائل القدر والإيمان مع مقا ـبهم له أيضا فى نفى الصفات .

والكلابية والأشعرية[٢٠٥] : خير من هؤلاء فى باب الصفات ، فإنهم يثبتون لله الصفات العقلية ، وأئمتهم يثبتون الصفات الخبرية فى الجملة ، كما فصلت أقوالهم فى غير هذا الموضع .

وأما فى باب القدر ، ومسائل الأسماء والأحكام ، فأقوالهم متقاربة .

والكلابية هم أتباع أبى محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ، الذى سلك الأشعرى خطته .

---

(٢٠٤) قال الحافظ ابن حجر العسقلانى فى لسان‌الميزان :جهم بن صفوان الضال المبتدع رأس الجهمية هلك فى زمان التابعين قتله نصر بن سيار سنة ١٢٨ هجرية

(٢٠٥) الأشعرية ولد أبو الحسن الأشعرى رأس المذهب فى البصرة سنة ٢٦٠ أو ٢٧٠ هجرية وتوفى رحمة الله فى بغداد سنة ٣٣٠ هجرية أو قبلها أو بعدها انتحى مذهباً من مذاهب علماء الكلام ثم إن الله تقبل توبته ورجع لمذهب أهل السنة ومات عليها وله من المؤلفات :

ــ الإبانة عن أصول الديانة .

ــ ومقالات الإسلاميين وغيرهما من الكتب .

وأصحاب ابن كلاب كالحارث المحاسبى ، وأبى العباس القلانسى ونحوهما . خير من الأشعرية فى هذا وهذا ، فكلما كان الرجل إلى السلف والأئمة أقرب كان قوله أعلى وأفضل .

والكرامية[٢٠٦] قولهم فى الإيمان قول منكر ، لم يسبقهم إليه أحد ، حيث جعلوا الإيمان قول اللسان ، وإن كان مع عدم تصديق القلب ، فيجعلون المنافق مؤمناً ؛ لكنه يخلد فى النار فخالفوا الجماعة فى الاسم دون الحكم ، وأما فى الصفات والقدر والوعيد فهم أشبه من أكثر طوائف الكلام التى فى أقوالها مخالفة للسنة .

وأما المعتزلة ،فهم ينفون الصفات ويقاربون قول جهم ، لكنهم ينفون القدر ؛ فهم وإن عظموا الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ؛ وغلوا فيه ؛ فهم يكذبون بالقدر ، ففيهم نوع من الشرك من هذا الباب ، والإقرار بالأمر والنهى والوعد والوعيد مع إنكار القدر خير من الإقرار بالقدر مع إنكار الأمر والنهى والوعد والوعيد .

ولهذا لم يكن فى زمن الصحابة والتابعين من ينفى الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، وكان قد نبغ فيهم القدرية ، كما نبغ فيهم الخوارج :الحرورية ، وإنما يظهر من البدع أولاً ما كان أخفى ، وكلما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة .

فهؤلاء المتصوفون ، الذين يشهدون الحقيقة الكونية مع إعراضهم عن الأمر والنهى : شر من القدرية المعتزلة ونحوهم : أولئك يشبهون المجوس وهؤلاء يشبهون المشركين ، الذين قالوا : ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[٢٠٧] والمشركون شر من المجوس .

فهذا أصل عظيم ، على المسلم أن يعرفه ؛ فإنه أصل الإسلام الذى يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر ، وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

---

(٢٠٦) الكرامية : أصحاب «محمد بن كرام» يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيماناً وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ كانوا مؤمنين على الحقيقة ، وزعموا أن الكفر بالله هو الجحود والإنكار له باللسان . مقالات الإسلاميين (٢٢٣/١) .

مات محمد بن كرام فى السجن بنيسابور بعد أن سجن ثمانية أعوام سنة ٢٥٥ هجرية .

(٢٠٧) سورة الأنعام الآية (١٤٨) .

وقد وقع كثير من الناس فى الإخلال بحقيقة هذين الأصلين ، أو أحدهما مع ظنه أنه فى غاية التحقيق والتوحيد ، والعلم والمعرفة .

فإقرار المشرك بأن الله رب كل شيء ، ومليكه وخالقه : لا ينجيه من عذاب الله ، إن لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلا الله ، فلا يستحق العبادة أحد إلا هو ؛ وأن محمداً رسول الله ، فيجب تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، فلابد من الكلام فى هذين الأصلين :

الأصل الأول «توحيد الإلهية» فإنه سبحانه أخبر عن المشركين كما تقدم بأنهم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله ، يدعونهم ويتخذونهم شفعاء بدون إذن الله ، قال تعالى : ﴿ويَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُم وَلَا يَنفَعُهُمْ ، ويَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢٠٨] فأخبر أن هؤلاء الذين اتخذوا هؤلاء شفعاء مشركون .

وقال تعالى عن مؤمن يس ﴿ومَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِي وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ولا يُنقِذُونِ * إنّى إِذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فاسْمَعُونِ﴾[٢٠٩] وقال تعالى : ﴿ولَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّل مَرّةٍ وتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهورِكُمْ وَمَا نرىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُون﴾[٢١٠] فأخبر سبحانه عن شفعائهم أنهم زعموا أنهم فيهم شركاء ، وقال تعالى : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفعاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانوا لا يَمْلكون شَيْئًا ولا يَعْقِلُونَ * قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ والأَرْضِ ثُمَّ إليهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢١١] وقال تعالى : ﴿ما لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[٢١٢] وقال تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[٢١٣] وقال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاّ بإذنِهِ﴾[٢١٤] وقال تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخذَ الرَّحمَٰنُ وَلَدًا سُبحانَهُ

---

(٢٠٨) سورة يونس الآية ١٨

(٢٠٩) سورة يس الآيات ٢٢ ، ٢٥ .

(٢١٠) سورة الأنعام الآية ٩٤

(٢١١) سورة الزمر الآيتان ٤٣ ، ٤٤

(٢١٢) سورة السجدة الآية ٤

(٢١٣) سورة الأنعام الآية ٥١

(٢١٤) سورة البقرة الآية ٢٥٥

بَلْ عِبَادٌ مُكرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ وَهُمْ بأمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلاّ لِمَنِ ارتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[٢١٥] وقال تعالى : ﴿وَكَمْ مِّنْ مَّلَكٍ فِي السَّمَواتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إلاّ مِنْ بَعْدِ أنْ يَأذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[٢١٦] وقال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعمْتُمْ مِنْ دُونِ الله لاَ يَمْلِكُونَ مِثقالَ ذرَّةٍ فِي السَّمَـٰواتِ ولاَ فِي الأَرْضِ ، وَمَا لَهُم فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَالَهُ مِنْهُم مِّنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[٢١٧] وقال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّنْ دُونهِ فَلَا يملِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً * أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيهُمْ أَقرَبُ وَيرْجُونَ رَحْمتهُ وَيَخَافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كَانَ مَحذُورًا﴾[٢١٨] .

قال طائفة من السلف : كان قوم يدعون العزير والمسيح والملائكة فأنزل الله هذه الآية يبين فيها أن الملائكة والأنبياء يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

ومن تحقيق التوحيد : أن يعلم أن الله تعالى أثبت له حقًّا لا يشركه فيه مخلوق ؛ كالعبادة والتوكل ، والخوف والخشية ، والتقوى ، كما قال تعالى : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلَـٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً﴾[٢١٩] وقال تعالى : ﴿إِنَّا أنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ فاعبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾[٢٢٠] وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾[٢٢١] وقال تعالى : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّها الجَاهِلُونَ﴾[٢٢٢] إلى قوله : ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ وكل من الرسل يقول لقومه : ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِنْ إلَـٰهٍ غَيْرُه﴾[٢٢٣] .

وقد قال تعالى فى التوكل : ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾[٢٢٤] ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ﴾[٢٢٥] وقال : ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُونَ﴾[٢٢٦]

---

(٢١٥) سورة الأنبياء الآيات ٢٦ : ٢٨
(٢١٦) سورة النجم الآية ٢٦
(٢١٧) سورة سبأ الآيتان ٢٢ ، ٢٣
(٢١٨) سورة الإسراء ٥٦ ، ٥٧
(٢١٩) سورة الإسراء الآية ٢٢
(٢٢٠) سورة الزمر الآية ٢
(٢٢١) سورة الزمر الآية ١١
(٢٢٢) سورة الزمر الآية ٦٤
(٢٢٣) سورة الأعراف الآية ٥٩
(٢٢٤) سورة المائدة الآية ٢٣
(٢٢٥) سورة ابراهيم الآية ١١
(٢٢٦) سورة الزمر الآية ٣٨

وقال تعالى : ﴿وَلَو أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُم اللهُ وَرَسُولُه وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤتِينَا اللهُ مِنْ فَضلِه وَرَسُولُه إنَّا إلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾[٢٢٧] .

فقال فى الإتيان : ﴿مَا آتَاهُم اللهُ وَرَسُولُه﴾ وقال فى التوكل : ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ﴾ ولم يقل : ورسوله ؛ لأن الإتيان هو الاعطاء الشرعى ، وذلك يتضمن الإباحة والإحلال ، الذى بلغه الرسول ، فإن الحلال ما أحله ، والحرام ما حرمه والدين ما شرعه ، قال تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٢٢٨] .

وأما الحسب فهو الكافى ، والله وحده كاف عبده ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادَهُم إيمَانًا وَقَالُوا حَسبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾[٢٢٩] فهو وحده حسبهم كلهم ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٣٠] أى حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين هو الله ، فهو كافيكم كلكم .

وليس المراد أن الله والمؤمنين حسبك ، كما يظنه بعض الغالطين ، إذ هو وحده كاف نبيه ، وهو حسبه ، ليس معه من يكون هو وإياه حسباً للرسول ، وهذا فى اللغة كقول الشاعر :

فحسبك والضحاك سيف مهند .

وقال فى الخوف والخشية والتقوى : ﴿ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ ويَخْشَ اللهَ ويتَّقِهِ فأولئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾[٢٣١] فأثبت الطاعةَ لله والرسول ، وأثبت الخشية والتقوى لله وحده ، كما قال نوح عليه السلام : ﴿ إنِّى لكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ اعبُدوا اللهَ واتقوهُ وَأطِيعُونِ ﴾[٢٣٢] فجعل العبادة والتقوى لله وحده ، وجعل الطاعة للرسول ؛ فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله .

وقد قال تعالى : ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ﴾[٢٣٣] وقال تعالى : ﴿فَلا

---

(٢٢٧) سورة التوبة الآية ٥٩
(٢٢٨) سورة الحشر الآية ٧
(٢٢٩) سورة آل عمران الآية ١٧٣
(٢٣٠) سورة الأنفال الآية ٦٤
(٢٣١) سورة النور الآية ٥٢
(٢٣٢) سورة نوح الآيتان ٢ ، ٣
(٢٣٣) سورة المائدة الآية ٤٤

تخافوهُمْ وَخافُونِ إنْ كنتُم مُؤمِنِينَ﴾[٢٣٤] وقال الخليل عليه السلام : ﴿وكَيْفَ أخافُ مَا أشْرَكْتُمْ وَلاَ تخافُونَ أنَّكُمْ أشْرَكْتُمْ باللهِ مَا لَمْ يُنزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سلطانًا ، فأىُّ الفَرِيقَيْنِ أحَقُّ بالأمْنِ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الّذِينَ آمنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُم بِظُلْمٍ أُولئكَ لَهُم الأمْنُ وهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[٢٣٥] .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبى ﷺ : «**إنما هو الشرك أو لَمْ تسمعوا إلى قول العبد الصالح** : ﴿**إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[٢٣٦] ؟ وقال تعالى : ﴿**فإيَّاىَ فارْهَبُونِ**﴾ ﴿**وإيّاىَ فاتَّقُون**﴾[٢٣٧] .

ومن هذا الباب أن النبى ﷺ كان يقول فى خطبته : «**من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ، ولن يضر الله شيئاً**» .

وقال : «**ولا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ماشاء الله ثم شاء محمد**» .

ففى الطاعة : قرن اسم الرسول باسمه بحرف الواو ، وفى المشيئة : أمر أن يجعل ذلك بحرف ثم ، وذلك لأن طاعة الرسول طاعة لله ، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله ، وطاعة الله طاعة الرسول ، بخلاف المشيئة فليست مشيئة أحد من العباد مشيئة لله ، ولا مشيئة الله مستلزمة لمشيئة العباد ، بل ما شاء الله كان ، وإن لم يشأ الناس ، وما شاء الناس لم يكن إن لم يشأ الله .

الأصل الثانى :

حق الرسول ﷺ .

فعلينا أن نؤمن به ونطيعه ونتبعه ، ونرضيه ونحبه ونسلم لحكمه ، وأمثال ذلك ، قال تعالى : ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللهَ**﴾[٢٣٨] وقال تعالى : ﴿**واللهُ وَرَسُولُهُ أحَقُّ أنْ يُرْضُوهُ**﴾[٢٣٩] وقال تعالى : ﴿**قُلْ إنْ كَانَ آباؤُكُمْ ، وَأبناؤُكُمْ ، وإخْوَانُكُمْ ،**

---

(٢٣٤) سورة آل عمران الآية ١٧٥

(٢٣٥) سورة الأنعام الآيتان ٨١ ، ٨٢

(٢٣٦) سورة لقمان الآية ١٣

(٢٣٧) سورة البقرة الآيتان ٤٠ ، ٤١

(٢٣٨) سورة النساء الآية ٨٠

(٢٣٩) سورة التوبة الآية ٦٢

وَأَزوَاجكم ، وَعشيرتكُم ، وَأَموالٌ اقترَفتمُوها ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنَ تَرضونها أَحَبَّ إِليكُم مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ ، وَجِهَادٍ فى سَبيلِهِ فتربصوا حَتَّى يَأتِيَ اللهُ بأمْرِهِ﴾[٢٤٠] وقال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لاَيُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢٤١] وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[٢٤٢] وأمثال ذلك .

---

(٢٤٠) سورة التوبة الآية ٢٤

(٢٤١) سورة النساء الآية ٦٥

(٢٤٢) سورة آل عمران الآية ٣١

الإيمان بخلق الله وأمره

وإذا ثبت هذا : فمن المعلوم أنه يجب الإيمان بخلق الله وأمره : بقضائه وشرعه .

وأهل الضلال الخائضون فى القدر انقسموا إلى ثلاث فرق : مجوسية ، ومشركية ، وإبليسية .

فالمجوسية : الذين كذبوا بقدر الله وإن آمنوا بأمره ونهيه ؛ فغلاتهم أنكروا العلم والكتاب ، ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته ، وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم .

والفرقة الثانية : المشركية الذين أقروا بالقضاء والقدر ، وأنكروا الأمر والنهى ؛ قال تعالى : ﴿**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشركُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ولا آباؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شيءٍ**﴾[٢٤٣] فمن احتج على تعطيل الأمر والنهى بالقدر فهو من هؤلاء ، وهذا قد كثر فيمن يدعى الحقيقة من المتصوفة .

والفرقة الثالثة : وهم الإبليسية الذين أقروا بالأمرين ، لكن جعلوا هذا متناقضاً من الرب ـــ سبحانه وتعالى ـــ وطعنوا فى حكمته وعدله ، كما يذكر ذلك عن إبليس مقدمهم ؛ كما نقله أهل المقالات ، ونقل عن أهل الكتاب .

والمقصود أن هذا مما تقوله أهل الضلال ؛ وأما أهل الهدى والفلاح : فيؤمنون بهذا وهذا ، ويؤمنون بأن الله خالق كل شيء ، وربه ومليكه ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيء قدير ، وأحاط بكل شيء علماً ، وكل شيء أحصاه فى إمام مبين .

ويتضمن هذا الأصل من إثبات علم الله ، وقدرته ومشيئته ، ووحدانيته وربوبيته ، وأنه خالق كل شيء ، وربه ومليكه : ما هو من أصول الإيمان .

ومع هذا فلا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب ، التى يخلق بها المسببات ؛ كما قال تعالى : ﴿**حتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثقالاً سُقْنَاهُ لبَلَدٍ مَيْتٍ ، فأَنْزَلنَا بِهِ الماءَ ، فأَخْرَجْنا بِهِ**

(٢٤٣) سورة الأنعام الآية ١٤٨

﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[٢٤٤] وقال تعالى : ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾[٢٤٥] وقال تعالى : ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾[٢٤٦] فأخبر أنه يفعل بالأسباب .

ومن قال : إنه يفعل عندها لا بها فقد خالف ما جاء به القرآن ، وأنكر ما خلقه الله من القوى والطبائع ، وهو شبيه بإنكار ما خلقه الله من القوى التى فى الحيوان ، التى يفعل الحيوان بها ، مثل قدرة العبد ، كما أن من جعلها هى المبدعة لذلك فقد أشرك بالله وأضاف فعله إلى غيره .

وذلك أنه ما من سبب من الأسباب إلا وهو مفتقر إلى سبب آخر فى حصول مسببه ، ولابد من مانع يمنع مقتضاه ، إذا لم يدفعه الله عنه ، فليس فى الوجود شيء واحد يستقل بفعل شيء إذا شاء الله وحده ، قال تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢٤٧] أى فتعلمون أن خالق الأزواج واحد .

ولهذا من قال : إن الله لا يصدر عنه إلا واحد — لأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد — كان جاهلا ، فإنه ليس فى الوجود واحد صدر عنه وحده شيء — لا واحد ولا اثنان — إلا الله خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون .

فالنار التى خلق الله فيها حرارة لا يحصل الإحراق إلا بها ، وبمحل يقبل الاحتراق ، فإذا وقعت على السمندل والياقوت ونحوهما لم تحرقهما ، وقد يطلى الجسم بما يمنع إحراقه .

والشمس التى يكون عنها الشعاع لابد من جسم يقبل انعكاس الشعاع عليه ، فإذا حصل حاجز من سحاب أو سقف : لم يحصل الشعاع تحته ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أنه لابد من « الإيمان بالقدر » فإن الإيمان بالقدر من تمام التوحيد ، كما قال ابن عباس : هو نظام التوحيد ، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده ، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض توحيده .

---

(٢٤٤) سورة الأعراف الآية ٥٧
(٢٤٥) سورة المائدة الآية ١٦
(٢٤٦) سورة البقرة الآية ٢٦
(٢٤٧) سورة الذاريات الآية ٤٩

ولابد من الإيمان بالشرع ، وهو الإيمان بالأمر والنهى والوعد والوعيد ، كما بعث الله بذلك رسله وأنزل كتبه .

والإنسان مضطر إلى شرع فى حياته الدنيا فإنه لابد له من حركة يجلب بها منفعته . وحركة يدفع بها مضرته ؛ والشرع هو الذى يميز بين الأفعال التى تنفعه ، والأفعال التى تضره ، وهو عدل الله فى خلقه ، ونوره بين عباده ؛ فلا يمكن الآدميين أن يعيشوا بلا شرع يميزون به بين ما يفعلونه ويتركونه .

وليس المراد بالشرع مجرد العدل بين الناس فى معاملاتهم ، بل الإنسان المنفرد لابد له من فعل وترك ؛ فإن الإنسان همام حارث ، كما قال النبى ﷺ «**أصدق الأسماء حارث وهمام**» وهو معنى قولهم متحرك بالإرادات ، فإذا كان له إرادة فهو متحرك بها ، ولابد أن يعرف ما يريده ، هل هو نافع له أو ضار ؟ وهل يصلحه أو يفسده ؟ .

وهذا قد يعرف بعضه الناس بفطرتهم كما يعرفون انتفاعهم بالأكل والشرب ، وكما يعرفون ما يعرفون من العلوم الضرورية بفطرتهم ، وبعضهم يعرفونه بالاستدلال الذى يهتدون به بعقولهم ، وبعضه لا يعرفونه إلا بتعريف الرسل وبيانهم لهم وهدايتهم لهم .

وفى هذا المقام تكلم الناس فى أن الأفعال هل يعرف لها حسن وقبيح بالعقل ، أم ليس لها حسن ولا قبيح يعرف بالعقل ؟ كما قد بسط فى غير هذا الوضع ، وبينا ما وقع فى هذا الموضع من الاشتباه .

فإنهم اتفقوا على أن كون الفعل يلائم الفاعل أو ينافره يعلم بالعقل ، وهو أن يكون الفعل سبباً لما يحبه الفاعل ويلتذ به ، وسبباً لما يبغضه ويؤذيه وهذا القدر يعلم بالعقل تارة ، وبالشرع أخرى ، وبهما جميعاً أخرى ؛ لكن معرفة ذلك على وجه التفصيل ، ومعرفة الغاية التى تكون عاقبة الأفعال : من السعادة والشقاوة فى الدار الآخرة ، لا تعرف إلا بالشرع .

فما أخبرت به الرسل من تفاصيل اليوم الآخر وأمرت به من تفاصيل الشرائع لا يعلمه الناس بعقولهم ، كما أن ما أخبرت به الرسل من تفصيل أسماء الله وصفاته لا يعلمه الناس بعقولهم ، وإن كانوا قد يعلمون بعقولهم جمل ذلك .

وهذا التفصيل الذى يحصل به الإيمان وجاء به الكتاب هو ما دل عليه قوله تعالى :

﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الكِتابُ ولَا الإيمَانُ ، وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٢٤٨] وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فإنَّما أَضلُّ عَلى نَفْسى وإنْ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[٢٤٩] وقوله تعالى : ﴿قُل إنّما أُنذِرُكُم بالوَحْيِ﴾[٢٥٠] .

ولكن توهمت طائفة إن للحسن والقبح معنى غير هذا ، وأنه يعلم بالعقل ، وقابلتهم طائفة أخرى ظنت أن ما جاء به الشرع من الحسن والقبح : يخرج عن هذا ، فكلا الطائفتين اللتين أثبتتا الحسن والقبح العقليين أو الشرعيين ، وأخرجتاه عن هذا القسم غلطت .

ثم إن كلتا الطائفتين لما كانتا تنكران أن يوصف الله بالمحبة والرضا ، والسخط والفرح ، ونحو ذلك مما جاءت به النصوص الإلهية ودلت عليه الشواهد العقلية : تنازعوا بعد اتفاقهم على أن الله لا يفعل ما هو منه قبيح هل ذلك ممتنع لذاته ، وأنه لا يتصور قدرته على ما هو قبيح ، وأنه سبحانه منزه عن ذلك ، لا يفعله لمجرد القبح الذى أثبتوه ؟ على قولين .

والقولان فى الانحراف من جنس القولين المتقدمين ، أولئك لم يفرقوا فى خلقه وأمره بين الهدى والضلال ، والطاعة والمعصية ، والأبرار والفجار ، وأهل الجنة وأهل النار ، والرحمة والعذاب ؛ فلا جعلوه محموداً على ما فعله من العدل أو ما تركه من الظلم ، ولا ما فعله من الإحسان والنعمة ، وما تركه من التعذيب والنقمة .

والآخرون نزهوه بناء على القبح العقلى الذى أثبتوه ، ولا حقيقة له ، وسووه بخلقه فيما يحسن ويقبح ، وشبهوه بعباده فيما يأمر به وينهى عنه .

فمن نظر إلى القدر فقط ، وعظم الفناء فى توحيد الربوبية ، ووقف عند الحقيقة الكونية : لم يميز بين العلم والجهل ، والصدق والكذب ، والبر والفجور ، والعدل والظلم ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال ، والرشاد والغى ، وأولياء الله وأعدائه ، وأهل الجنة وأهل النار .

---

(٢٤٨) سورة الشورى الآية ٥٢

(٢٤٩) سورة سبأ الآية ٥٠ .

(٢٥٠) سورة الأنبياء الآية ٤٥

وهؤلاء مع أنهم مخالفون بالضرورة لكتب الله ، ودينه وشرائعه ، فهم مخالفون أيضاً لضرورة الحس والذوق ، وضرورة العقل والقياس ، فإن أحدهم لابد أن يلتذ بشيء ، فيميز بين ما يأكل ويشرب ، وما لا يأكل ولا يشرب ، وبين ما يؤذيه من الحر والبرد ، وما ليس كذلك ، وهذا التمييز بين ما ينفعه ويضره هو الحقيقة الشرعية الدينية .

ومن ظن أن البشر ينتهى إلى حد يستوى عنده الأمران دائماً : فقد افترى وخالف ضرورة الحس ؛ ولكن قد يعرض للإنسان بعض الأوقات عارض ، كالسكر والإغماء ونحو ذلك مما يشغل عن الإحساس ببعض الأمور ، فأما أن يسقط إحساسه بالكلية مع وجود الحياة فيه فهذا ممتنع ، فإن النائم لم يفقد إحساس نفسه ، بل يرى فى منامه ما يسوءه تارة ، وما يسره أخرى .

فالأحوال التى يعبر عنها بالاصطلام والفناء والسكر ونحو ذلك ، إنما تتضمن عدم الإحساس ببعض الأشياء دون بعض ، فهى مع نقص صاحبها — لضعف تمييزه — لا تنتهى إلى حد يسقط فيه التمييز مطلقاً ، ومن نفى التمييز فى هذا المقام مطلقاً ، وعظم هذا المقام فقد غلط فى الحقيقة الكونية والدينية : قدراً وشرعاً ، وغلط فى خلق الله وفى أمره حيث ظن أن وجود هذا ؛ لا وجود له ، وحيث ظن أنه ممدوح ، ولا مدح فى عدم التمييز : العقل والمعرفة .

وإذا سمعت بعض الشيوخ يقول : أريد أن لا أريد ، أو أن العارف لا حظ له ، وأنه يصير كالميت بين يدى الغاسل ونحو ذلك ، فهذا إنما يمدح منه سقوط إرادته التى يؤمر بها وعدم حظه الذى لم يؤمر بطلبه ، وأنه كالميت فى طلب ما لم يؤمر بطلبه ، وترك دفع ما لم يؤمر بدفعه .

ومن أراد بذلك أنه تبطل إرادته بالكلية وأنه لا يحس باللذة والألم ؛ والنافع والضار ، فهذا مخالف لضرورة الحس والعقل والدين .

فصل فى أقسام الفناء الثلاثة

أحدها : هو الفناء الدينى الشرعى الذى جاءت به الرسل ، وأنزلت به الكتب ، وهو أن يفنى عما لم يأمر الله به بفعل ما أمر الله به : فيفنى عن عبادة غيره بعبادته ، وعن طاعة غيره بطاعته وطاعة رسوله ، وعن التوكل على غيره بالتوكل عليه ، وعن محبة

ما سواه بمحبته ومحبة رسوله ؛ وعن خوف غيره بخوفه ، بحيث لا يتبع العبد هواه بغير هدى من الله ، وبحيث يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ وإِخوانُكُمْ ، وأَزْوَاجُكُمْ ، وَعَشِيرَتُكُمْ ، وأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ،ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَاأَحبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ورسُولِهِ وجهادٍ فِى سبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾(٢٥١) فهذا كله هو مما أمر الله به ورسوله .

وأما (الفناء الثانى) : وهو الذى يذكره بعض الصوفية ، وهو أن يَفْنَى عن شهود ما سوى الله تعالى ، فيفنى بمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته ، بحيث قد يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله تعالى ، فهذا حال ناقص قد يعرض لبعض السالكين ، وليس هو من لوازم طريق الله .

ولهذا لم يعرف مثل هذا للنبى ﷺ وللسابقين الأولين ، ومن جعل هذا نهاية السالكين ، فهو ضال ضلالا مبيناً ، وكذلك من جعله من لوازم طريق الله فهو مخطىء ، بل هو من عوارض طريق الله التى تعرض لبعض الناس دون بعض ، ليس هو من اللوازم التى تحصل لكل سالك .

وأما الثالث : فهو الفناء عن وجود السوى ، بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق ، وأن الوجود واحد بالعين ، فهو قول أهل الإلحاد والاتحاد ، الذين هم من أضل العباد .

وأما مخالفتهم لضرورة العقل والقياس : فإن الواحد من هؤلاء لا يمكنه أن يطرد قوله ، فإنه إذا كان مشاهداً للقدر من غير تمييز بين المأمور والمحظور فعومل بموجب ذلك ، مثل أن يضرب ويجاع ، حتى يبتلى بعظيم الأوصاب والأوجاع ، فإن لام من فعل ذلك به وعابه فقد نقض قوله وخرج عن أصل مذهبه ، وقيل له : هذا الذى فعله مقضى مقدور ، فخلق الله وقدره ومشيئته : متناول لك وله وهو يعمكما ، فإن كان القدر حجة لك فهو حجة لهذا ، وإلا فليس بحجة لا لك ولا له .

فقد تبين بضرورة العقل فساد قول من ينظر إلى القدر ، ويعرض عن الأمر والنهى ، والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ، ويصبر على المقدور ، كما قال تعالى :

---

(٢٥١) سورة التوبة الآية ٢٤

﴿وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾[٢٥٢] .

وقال فى قصة يوسف : ﴿إِنَّه مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فإن اللهَ لا يُضيعُ أَجْرَ المُحسِنين﴾[٢٥٣] فالتقوى فعل ما أمر الله به . وترك ما نهى الله عنه ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿فاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ واستَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعشِيِّ والإبْكارْ﴾[٢٥٤] .

فأمره مع الاستغفار بالصبر ؛ فإن العباد لابد لهم من الاستغفار أوَّلِهم وآخرهم ، قال النبى ﷺ فى الحديثِ الصحيح : «يا أَيُّها النَّاس ! تُوبُوا إِلَىٰ رَبِّكُم ، فَوَ الذى نفسى بِيَدِهِ إِنِّى لأَستَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليهِ فى اليوم أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّة» وقال : «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِى ، وإِنِّى لأَستَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليهِ فِى اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» .

وكان يقول «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لى خَطِيئَتِى وَجَهْلِى ، وَإِسْرَافِى فِى أَمْرِى ، ومَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّى ؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى خَطَئِى وَعَمْدِى ، وهزلى وَجِدِّى ، وُكلُّ ذَلِكَ عِنْدِى ؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى ماقَدَّمتُ وماأخَّرتُ وماأسْرَرْتُ وماأعلَنْتُ ، وماأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّى أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المُؤَخِّرُ» .

وقد ذكر عن آدم أبى البشر أنه استغفر ربه وتاب إليه ، فاجتباه ربه فتاب عليه وهدى ؛ وعن إبليس أبى الجن ـ لعنه الله ـ أنه أصر متعلقاً بالقدر فلعنه وأقصاه ، فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبه أباه ، ومن أشبه أباه فما ظلم ، قال الله تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ اللهُ المُنَافِقِينَ والمُنَافِقَاتِ والمُشْرِكِينَ والمُشْرِكَاتِ ويَتُوبَ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٢٥٥] .

ولهذا قرن الله سبحانه بين التوحيد والاستغفار فى غير آية ، كما قال تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ولِلْمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ﴾[٢٥٦] وقال تعالى : ﴿فاسْتَقِيمُوا إِليهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾[٢٥٦ مكرر] وقال تعالى : ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمتْ آياتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وبَشِيرٌ * وأَنْ استغْفِرُوا ربَّكُمْ ثُمَّ تُوبوا إِليهِ يُمَتِّعْكُم مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[٢٥٧] .

---

(٢٥٢) سورة آل عمران الآية ١٢٠
(٢٥٣) سورة يوسف الآية ٩٠
(٢٥٤) سورة غافر الآية ٥٥
(٢٥٥) سورة الأحزاب الآيتان ٧٢ ، ٧٣
(٢٥٦) سورة محمد الآية ١٩
(٢٥٦)مكرر ـ سورة فصلت الآية ٦
(٢٥٧) سورة هود الآيات ١ : ٣

وفى الحديث الذى رواه ابن أبي عاصم وغيره : «**يقولُ الشيطانُ أهلكتُ الناسَ بالذنوبِ وأهلكُوني بلا إله إلَّا الله والاستغفارُ ؛ فَلما رأيتُ ذَلكَ بثت فيهم الأهواءَ فهم يُذنبونَ ولا يتوُبون لأنَّهم يَحسبونَ أنهم يُحسنونَ صنْعاً** » .

وقد ذكر سبحانه عن ذى النون أنه نادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، قال تعالى : ﴿**فاسْتجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغمِّ وكَذَلِكَ نُنْجى المُؤْمِنين**﴾[٢٥٨] قال النبى ﷺ «**دعوة أخى ذى النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه**» .

وجماع ذلك أنه لابد له فى الأمر من أصلين ، ولابد له فى القدر من أصلين .

ففى «الأمر» عليه الاجتهاد فى الامتثال علماً وعملا ، فلا تزال تجتهد فى العلم بما أمر الله به والعمل بذلك .

ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفريطه فى المأمور وتعديه الحدود .

ولهذا كان المشروع أن يختم جميع الأعمال بالاستغفار . فكان النبى ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً . وقد قال تعالى : ﴿**والمسْتَغْفِرينَ بالأَسْحَارِ**﴾[٢٥٩] فقاموا بالليل وختموه بالاستغفار ، وآخر سورة نزلت قول الله تعالى : ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ * وَرَأيتَ النَّاس يَدْخُلونَ فِى دِينِ الله أَفْواجًا * فسبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاستَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوابًا**﴾[٢٦٠] وفى الصحيح أنه كان ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى**» يتأول القرآن .

وأما فى «القدر» فعليه أن يستعين بالله فى فعل ما أمر به ، ويتوكل عليه ويدعوه ؛ ويرغب إليه ، ويستعيذ به ويكون مفتقراً إليه فى طلب الخير وترك الشر .

وعليه أن يصبر على المقدور ، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ؛ وإذا آذاه الناس علم أن ذلك مقدر عليه .

---

(٢٥٨) سورة الأنبياء الآية ٨٨

(٢٥٩) سورة آل عمران الآية ١٧

(٢٦٠) سورة النصر الآيات ١ : ٣

ومن هذا الباب احتجاج آدم وموسى لما قال : ياآدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ؛ لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه فبكم وجدت مكتوباً على من قبل أن أخلق : ﴿وَعَصى آدمُ ربهُ فغوى﴾(٢٦١) قال : بكذا وكذا ، فحج آدم موسى .

وذلك أن موسى لم يكن عتبه لآدم لأجل الذنب ، فإن آدم كان قد تاب منه ، والتائب من الذنب كم لاذنب له ؛ ولكن لأجل المصيبة التى لحقتهم من ذلك .

وهم مأمورون أن ينظروا إلى القدر فى المصائب ، وأن يستغفروا من المعائب كما قال تعالى : ﴿فاصبرْ إنَّ وَعْدَ الله حَقّ واستَغْفِرْ لذَنْبكَ﴾(٢٦٢) .

فمن راعى الأمر والقدر كما ذكر : كان عابداً لله مطيعا له ، مستعيناً به ، متوكلا عليه ، ﴿مَعَ الَّذينَ أنعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ، والصِّدِّيقِينَ ، والشُّهَدَاءِ والصَّالِحينَ ؛ وَحَسُنَ أولَئِكَ رَفِيقًا﴾ .

وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين فى مواضع كقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢٦٣) وقوله : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(٢٦٤) وقوله : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٢٦٥) وقوله : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحتَسِبُ ، وَمَنْ يَتوكَّل عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُه إنّ الله بَالِغُ أمرِهِ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾(٢٦٦) .

فالعبادة لله والاستعانة به ، وكان النبى ﷺ يقول عند الأضحية «اللهم منك ولك» فما لم يكن بالله لايكون ؛ فإنه لاحول ولاقوة إلا بالله ، ومالم يكن لله فلا ينفع ولايدوم .

ولابد فى عبادته من أصلين .

(أحدهما) إخلاص الدين له .

---

(٢٦١) سورة طه الآية ١٢١
(٢٦٢) سورة غافر الآية ٥٥
(٢٦٣) سورة الفاتحة الآية (٥)
(٢٦٤) سورة هود الآية ١٢٣
(٢٦٥) سورة الشورى الآية ١٠
(٢٦٦) سورة الطلاق الآيتان ٢ ، ٣

(والثانى) موافقة أمره الذى بعث به رسله ؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملى كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً ؛ وقال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٢٦٧] قال : أخلصه وأصوبه ، قالوا : ياأبا على ماأخلصه وأصوبه ؟ قال : إذا كان العمل خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة .

ولهذا ذم الله المشركين فى القرآن على اتباع ما شرع لهم شركاؤهم من الدين مالم يأذن به الله من عبادة غيره ، وفعل مالم يشرعه من الدين ، كما قال تعالى :﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّين مَالَمْ يَأذَنِ بِهِ اللهُ﴾[٢٦٨] كما ذمهم على أنهم حرموا مالم يحرمه الله .

والدين الحق أنه لا حرام إلا ماحرمه الله ، ولا دين إلا ما شرعه . ثم إن الناس فى عبادته واستعانته على أربعة أقسام : فالمؤمنون المتقون هم له وبه ، يعبدونه ويستعينونه .

وطائفة تعبده من غير استعانة ولا صبر ، فتجد عند أحدهم تحرياً للطاعة والورع ولزوم السنة ؛ لكن ليس له توكل واستعانة وصبر ؛ بل فيهم عجز وجزع .

وطائفة فيهم استعانة وتوكل وصبر ، من غير استقامة على الأمر ، ولا متابعة للسنة ، فقد يمكن أحدهم ويكون له نوع من الحال باطناً وظاهراً ، ويعطى من المكاشفات والتأثيرات مالم يعطه الصنف الأول ، ولكن لا عاقبة له ، فإنه ليس من المتقين ، والعاقبة للتقوى ؛ فالأولون لهم دين ضعيف ولكنه مستمر باق ؛ إن لم يفسده صاحبه بالجزع والعجز ؛ وهؤلاء لأحدهم حال قوة ، ولكن لا يبقى له إلا ماوافق فيه الأمر واتبع فيه السنة .

وشر الأقسام من لا يعبده ولا يستعينه ؛ فهو لا يشهد أن علمه لله ولا أنه بالله .

فالمعتزلة ونحوهم ـ من القدرية الذين أنكروا القدر ـ هم فى تعظيم الأمر والنهى والوعد والوعيد خير من هؤلاء الجبرية القدرية ، الذين يعرضون عن الشرع ، والأمر والنهى .

والصوفية فى القدر ومشاهدة توحيد الربوبية : خير من المعتزلة ، ولكن فيهم من فيه

---

(٢٦٧) سورة الملك الآية ٢ (٢٦٨) سورة الشورى الآية ٢١

نوع بدع ، مع إعراض عن بعض الأمر والنهى . والوعد والوعيد ، حتى يجعلوا الغاية هى مشاهدة توحيد الربوبية والفناء فى ذلك ، ويصيرون أيضاً معتزلين لجماعة المسلمين وسنتهم ، فهم معتزلة من هذا الوجه.

وقد يكون ماوقعوا فيه من البدعة شراً من بدعة أولئك المعتزلة ، وكلتا الطائفتين نشأت من البصرة .

وإنما دين الله مابعث به رسله ، وأنزل به كتبه ، وهو الصراط المستقيم ، وهو طريقة أصحاب رسول الله ، خير القرون وأفضل الأمة وأكرم الخلق على الله تعالى بعد النبيين ، قال تعالى : ﴿**والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ ، والَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بإحْسَانٍ رضِىَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾[٢٦٩] فرضى عن السابقين الأولين رضاً مطلقاً ، ورضى عن التابعين لهم بإحسان .

وقد قال النبى ﷺ فى الأحاديث الصحيحة : «**خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم**» .

وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحى لاتؤمن عليه الفتنة ؛ أولئك أصحاب رسول الله ﷺ أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفاً ؛ قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما : يامعشر القراء ! استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم ، فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقاً بعيداً ، ولئن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً .

وقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : خط لنا رسول ﷺ خطا ، وخط حوله خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : «**هذا سبيل الله ، وهذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾[٢٧٠] وقد أمرنا سبحانه أن نقول فى صلاتنا ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ .

---

(٢٦٩) سورة التوبة الآية ١٠٠

(٢٧٠) سورة الأنعام الآية ١٥٣

وقال النبى ﷺ : «**اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون ؛ وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوا ، النصارى عبدوا الله بغير علم**» .

ولهذا كان يقال: تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، وقال تعالى: ﴿**فإمّا يأتينّكُمْ مِنّى هُدًى فمنْ اتَّبَعَ هُداىَ فَلا يضلُّ ولا يشْقَى * ومَنْ أعْرَضَ عِنْ ذِكرى فإنّ لَهُ مَعيشةً ضنْكا**﴾(٢٧١) قال ابن عباس رضى الله عنهما: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . وقرأ هذه الآية .

وكذلك قوله تعالى : ﴿**الم ، ذلك الكتابُ لارَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذينَ يُؤْمنونَ بالغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ وممَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُون*والَّذين يُؤْمنُون بِما أُنْزِلَ إلَيْكَ وما أُنزِل مَنْ قَبْلكَ وبالآخِرة هُمْ يُوقِنُونَ* أُولئِكَ عَلى هُدًى مِنْ رَّبِّهِمْ وأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحونَ**﴾(٢٧٢) فأخبر أن هؤلاء مهتدون مفلحون ، وذلك خلاف المغضوب عليهم والضالين .

فنسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر إخواننا صراطه المستقيم ؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

---

(٢٧١) سورة طه الآية ١٢٣

(٢٧٢) سورة البقرة الآيات ١ : ٤

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث

فهرس الآثـار

فهرس الموضوعات

مطابع المدينة المنورة
ت : ٣٩٠٨٨٤٨

صدر حديثاً :

مجموعة الفتاوى والرسائل النسائية

سماحة الشيخ

عبد العزيز بن باز



